

الكسل عن الطاعات



obeikandi.com

مَقَرِّفَتَا

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلّم تسليماً كثيراً...

ثمّ أمّا بعد:

فقد كثرت الشكوى في الآونة الأخيرة من الكسل عن الطاعات، حتى من المنتسبين للشرع الحنيف، فرأيتُ أن أستعين بالله وأكتب هذه الرسالة تبياناً لأسباب الكسل ووسائل علاجه، وذكرتُ فيها فصلاً في آفات الكسل عسى أن يكون سبباً لسعي المرء في تحصيل أسباب علو الهمة، وتجنبه لأسباب الكسل، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

كتبه

دكتور هاشم عبد الوكيل الزهرى

obeikandi.com

الْفَضِيلَةُ الْأُولَى

التعريف بالكسل وأنواعه

قال في «لسان العرب»: «قال الليث: الكسل هو التثاقل عمّا لا ينبغي أن يُثاقل عنه، وقال في المحكم: الكسل هو التثاقل عن الشيء والفتور فيه».

وقال الشيخ محمد بن إسماعيل: «الكسل هو عدم انبعاث النفس للخير، وقلة الرغبة مع إمكانه».

قلت: الكسل نقيض يقظة القلب، بل هو غفلته، وإعراضه عن الخير، والقلوب في ذلك متفاوتة تفاوتاً لا يعلمه إلا الله، وإذا تبادت النفس في الكسل، وأهملها صاحبها ربما أدى به ذلك إلى التهاون في الفرائض والواجبات، وارتكاب المنهيات والمحرمات، والعياذ بالله.

أنواع الكسل:

(أ) الكسل عمّا هو أولى:

وهو أن يجد المرء في نفسه تكاسلاً عن فعل الخير الذي هو أولى بوقته الذي هو فيه، ولكن لا يجد تكاسلاً عن خيرٍ آخر، مثل أن يتكاسل المرء عن قيام الليل ولكن لا يجد تكاسلاً عن قراءته ومذاكرته للعلم في الليل، ومثل أن يجد المرء تكاسلاً عن قراءة أذكار الصباح والمساء، ولا يجد تكاسلاً عن قراءة العلم في ذلك الوقت، وقولنا «عن فعل الخير الذي هو أولى بوقته» أي: في الأصل؛ لأنّ عبادة الوقت الخاصة به أولى، ولكن ربما لو انشغل العبد بما هو أولى لم يجد قلبه، ولو انشغل ببابٍ آخر من أبواب الخير لوجد قلبه، فيكون ما يجد فيه قلبه أولى به هو، كما أفاد ذلك شيخ الإسلام وسيأتي كلامه - إن شاء الله -.

والاشتغال بالخير مطلقاً خيراً، وإن كان الاشتغال بوظيفة الوقت أولى؛ ولذا كان التكاسل عمّا هو أولى نوع تكاسل، وإذا كان المرء معذوراً في اشتغاله عمّا هو أولى في بعض الأحيان لأمرٍ طارئٍ، فلا ينبغي المداومة على ذلك، بحيث تضيع عبادة الوقت بالكلية؛ فإنّ ذلك يورث القلب التكاسل مطلقاً - ولو بعد حين - سواء عن عبادة الوقت أو عن غيره، وهذا أمرٌ مشاهدٌ ومجربٌ - نعم ربما كان أنفع لطالب العلم أن يشتغل جُلّ وقته بمدارسة العلم، ولكن لا يخلُ بالحدّ الأدنى من العبادات الموظفة للأوقات، فليس هذا من هدي سلف الأمة الذين ملئوا الدنيا علماً.

(ب) الكسل عن فعل الخير على العموم؛

وهذا آفةٌ من الآفات التي انتشرت بين أبناء الصحوة الإسلامية في الآونة الأخيرة، ممّا كان له عظيم الأثر في تصاغر الهمم، وضياع الأوقات النفيسة في ما لا فائدة من ورائه، ونشأة أجيال لا تعرف من الالتزام إلّا صورته دون تطبيقٍ أو فهمٍ لمعناه، فإلى الله المشتكى وعليه التكلان وهو المستعان على أن يرزقنا جميعاً الهمة في الخير، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وهو المسئول أن يجعل من هذه الرسالة سبباً لسعي كل مؤمن لمحاربة كسل نفسه، ومداواته لتقاعسها عن أبواب الخير.



الفصل الثاني

آفات الكسل

لا شك أنّ الكسل له آفات كثيرة، ولو لم يكن من آفاته إلاّ أنّه يؤدي إلى ضياع الوقت الذي هو من أنفس ما يكون في غير ما فائدة، لكفى ذلك سبباً لدفع النفس إلى مقتته والسعي في أسباب علاجه، فكيف وهو يؤدي إلى آفات أخرى، منها تقاعد العبد عن التكسب الذي يكفّ به نفسه ومنّ يعول عن مسألة الناس؟!، فلنذكر - بحمد الله ومعونته - آفات الكسل؛ عسى أن تكون سبباً في سعي العبد الدائب لنفيه عن قلبه، والله الموفق وحده لا شريك له:

الآفة الأولى - ضياع الوقت في غير ما عمل:

فإنّ العبد الكسول لا تكاد تُقدّم نفسه على الأعمال الصالحة، فتضيع أوقاته التي هي في الحقيقة رأس ماله في هذه الحياة الدنيا، فيقدم يوم القيامة مفلساً أو فقيراً من الحسنات، وأحسن أحواله أن تفوته منازل المحسنين، والدرجات العلى في جنّات النعيم، وهذا هو الفقر الحقيقي والإفلاس المزري، وقد أدرك السلف - رحمهم الله - ذلك، فكانوا أحرص الناس على حفظ أوقاتهم والزيادة من أعمال الخير، والمطلع على أقوالهم وأحوالهم يعرف ذلك.

قال الحسن البصري: «ابن آدم إنما أنت أيام فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكلّ، وأنت تعلم فاعمل».

وقال بشر بن الحارث: «أمسّ قد مات، واليوم في النزاع، وغدٌ لم يولد فبادر بالأعمال الصالحة».

وقال أيضاً: «الليل والنهار حثيثان يعملان فيك، فاعمل فيهما».

وقال بعض السلف: «من كان يومه مثل أمسه فهو مغبون، ومن لم يتعاهد النقصان من نفسه فهو في نقصان، ومن كان في نقصان فالمت خيراً له».

وقال أبو بكر بن عياش: «لو سقط من أحدهم درهم لظلَّ يومه يقول: إنا لله ذهب درهمي، وهو يذهب عمره ولا يقول: ذهب عمري، وقد كان لله أقوامٌ يبادرون الأوقات، ويحفظون الساعات، ويلزمون بها بالطاعات».

قال ابن رجب: «كانوا لا يرضون كلَّ يومٍ إلا بالزيادة من عمل الخير ويستحيون من فقد ذلك ويعدون خسراناً كما قيل:

أليس من الخسران أن ليا ليا تمرُّ بلا نفع وتحسب من عمري»

وقال بعضهم: «كان الصديقون يستحيون من الله أن يكونوا اليوم على مثل حالهم بالأمس».

وقال بعض السلف: «لا تكثر من النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تجعل العبد يوم القيامة مفلساً».

قال ابن رجب: «الموتى في قبورهم يتحسرون على زيادة في أعمالهم بتسييعة وبركة، ومنهم من يسأل الرجعة إلى الدنيا لذلك، فلا يقدرّون على ذلك؛ قد حيل بينهم وبين العمل، ورؤي بعضهم في المنام فقال: ندمنا على أمرٍ عظيم نعلم ولا نعمل، وأنتم تعملون ولا تعلمون، والله لتسييعة أو تسييحتان، أو ركعة أو ركعتان في صحيفة أحدنا أحب إليه من الدنيا وما فيها»، قال بعض السلف: كل يوم يعيش فيه المؤمن غنيمة».

وقال بعضهم: «بقية عمر المؤمن لا قيمة له»، يعني أنه يمكنه أن يمحو فيه ما سلف منه من الذنوب بالتوبة وأن يجتهد فيه في بلوغ الدرجات العالية بالعمل الصالح، فأما مَنْ فرط في بقية عمره فهو خاسر، فإن ازداد فيه من الذنوب فذلك هو الخسران المبين،

الأعمال بالخواتيم، مَنْ أصلح فيما بقي غفر له ما مضى، وَمَنْ أساء فيما بقي أخذ بما بقي وما مضى:

يا بائعاً عمره مطيعاً أمله في معصية الله كفعل الجهله
إن ساومك الجهل بباقيه فقل باقي عمر المؤمن لا قيمة له»

وقال إبراهيم الحربي: «صحت أحمد بن حنبل عشرين سنة صيفاً وشتاءً، ليلاً ونهاراً، فما لقيته في يومٍ إلّا وهو زائدٌ عليه بالأمس».

وقال بكر المزي: «ما من يومٍ أخرجه الله إلى أهل الدنيا إلّا ينادي: ابن آدم اغتنمني، لعله لا يوم لك بعدي، ولا ليلةً إلّا تنادي: ابن آدم اغتنمني، لعله لا ليلةً لك بعدي».

وقال الحسن: «يا ابن آدم: اليومُ ضيفُك، والضيفُ مرتحلٌ بحمدك أو بدمك، وكذلك ليلتك».

وقال عمر بن ذر: «اعملوا لأنفسكم - رحمكم الله - في هذا الليل وسواده، فإنّ المغبون من غبنَ خير الليل والنهار، والمحروم من حرمَ خيرهما، وإنّما جُعلا سبيلاً للمؤمنين إلى طاعة ربهم، ووبالاً على الآخرين للغفلة عن أنفسهم، فأحيوا لله أنفسكم بذكره، فإنما تحيا القلوب بذكر الله»^١ هـ.

واعلم أنّ العبد المضيع لوقته يجني الحسرة في الدنيا إذا رأى المحافظين على أوقاتهم في ألوان الطاعات يتقلبون، وبلدة الإيمان يتنعمون بينما هو يكابد الملل والسّامة، كما يجني التأخر يوم القيامة في المنازل، قال ﷺ: «احضروا الجمعة وادنوا من الإمام، فإنّ الرجل لا يزال يتباعد حتى يؤخر في الجنة وإن دخلها» (رواه أبو داود والحاكم [انظر:

فعلى العبد أن يبادر بالعمل الصالح ولا يسوّف، قَالَ النَّبِيُّ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْرِفَةِ مَنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةِ عَرْضِهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ (الْعَمَلُ: ١٣٣)، وقال: ﴿فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (الْبَقَّة: ١٤٨)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «التَّوَدُّةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ خَيْرٌ إِلَّا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ» (رواه أبو داود والحاكم [انظر صحيح الجامع: برقم ٣٠٠٩]).

قال بعضهم:

انتبه من رقدة الغفلة فالعمر قليل
واطرح سوف وحتى فهما داءٌ دخيل

وقال آخر:

يا رجال الليل جدّوا رَبِّ دَاعٍ لَا يَرُدُّ
لا يقوم الليل إلا مَنْ لَهُ عَزْمٌ وَجَدُّ

وقال ابن القيم: «لا بد من سنة الغفلة، ورقاد الغفلة، ولكن كُنْ خفيف النوم».

وقال ابن الجوزي: «واعلم أنَّ الأيام تبسط ساعات، والساعات تبسط أنفاسًا، وكل نَفَسٌ خزانة، فاحذر أن يذهب نَفَسٌ بغير شيء، فترى يوم القيامة خزانة فارغة فتندم، فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ غَرَسَتْ لَهُ نَخْلَةً فِي الْجَنَّةِ» (رواه الترمذي وانظر: «صحيح الجامع» برقم [٦٣٠٥])، فانظر إلى مضيّع الساعات كم يفوته من النخيل».

وقال ابن القيم: «اشتر نفسك اليوم، فإنَّ السوق قائمة، والثلث موجود، والبضائع رخيصة، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يومٌ لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير».

وقال د/ خالد أبو شادي: «كل وقتٍ تقضيه في غير طاعة مولاك فقد خسرتَه، وساعةٌ تغفل فيها عن ذكر الله تكون عليك حسرة يوم القيامة، فوا أسفاه على زمانٍ انقضى في غير طاعته، ووا حسرتاه على قلبٍ عاش في غير خدمته».

وقال ابن الجوزي: «قد يكون الإنسان صحيحًا ولا يكون متفرغًا لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنيًا ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعَا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون».

الآفة الثانية- التقصير في الفرائض والنوافل:

فإن الكسل يثقل على العبد الطاعات، فيتهاون في النوافل والمستحبات التي هي في الحقيقة تعويضٌ لفرائضه التي ربما شابهها الرياء أو العجب أو قلة الخشوع أو غير ذلك مما ينقصها، بل ربما أدى الكسل إلى تهاون العبد في الفرائض نفسها، فالفنس إن لم ينتبه لها العبد ويقسرها على الطاعات، أوقعته في المهالك وأوردته أقبح المسالك، ومن لم يغلب نفسه على الخير الذي يعرفه ويتغلب على كسلها، فاته فضائل كثيرة، وإلا فهل يتصور الدعاء والاستغفار بالأسحار من كسلان، خاصة في ليالي الشتاء؟! وهل تُتوقع المداومة على الأذكار التي تُقال عند النوم وبعد كل صلاة من كسلان؟! وفي الحديث: «خصلتان لا يحافظ عليهما عبدٌ مسلمٌ إلا دخل الجنة، هما يسيرٌ ومن يعمل بهما قليلٌ؛ يسبح في دبر كل صلاةٍ عشرًا، ويحمد عشرًا، ويكبر عشرًا، فذلك خمسون ومائة باللسان، وألف وخمسمائة في الميزان، ويكبر أربعًا وثلاثين إذا أخذ مضجعه، ويحمد ثلاثًا وثلاثين، ويسبح ثلاثًا وثلاثين، فذلك مائة باللسان، وألف في الميزان» (رواه أبو داود، وصححه الألباني)، وقال أيضًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمِدَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَتِلْكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَقَالَ تَمَامُ الْمِائَةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ غُفِرَتْ لَهُ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ» (رواه مسلم)، فانظر كم يفوت الكسلان من خيرٍ عظيم!!! وهذان عملان فقط من الأعمال الصالحة التي فضلها عظيم ويحرم المرء نفسه منها بسبب الكسل.

كما أنَّ العبد الكسول - وإن أدّى الطاعات - فإنه يؤدّيها دون خشوعٍ أو حضور قلبٍ ممّا يُنقص ثواب عمله؛ فإن ثواب المرء على قدر ما قام بقلبه من إخلاصٍ وصدقٍ ومحبةٍ وخوفٍ ورجاءٍ وزهدٍ أثناء أدائه العمل إلى جانب ما يفوته من الخير الحاصل لأهل الطاعة الصادقين المخبّتين.

يقول محمد بن واسع: «إذا أقبل العبد بقلبه إلى الله أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه». وقال بعض السلف: «مَنْ قَرَّتْ عينُهُ بالله قَرَّتْ برؤيته العيون»، وقال آخر: «على قدر قيامك بطاعة الله تكون خدمة الناس لك، وعلى قدر هيبتك لله تكون هيبة الناس منك، وعلى قدر محبتك لله تكون محبة الناس لك».

الآفة الثالثة- الحرمان في مواسم الخير؛

فإنَّ العبد الكسول لا يكاد يجتهد في الطاعة في مواسم الخير كشهر رمضان والعشر الأوائل من ذي الحجة وغيرهما من مواسم الخير؛ فإنَّ اجتهد النفس في الطاعة يحتاج إلى تعودٍ ومثابرة، والكسول بخلاف ذلك، وكم من عبدٍ يتكاسل عن الطاعة طوال العام ويميّن نفسه بالاجتهاد في الطاعة إذا أتى رمضان أو عشر ذي الحجة، فيغلبه كسلُ نفسه، وقد صدق مَنْ قال: «الخير عادة والشر لجاجة»، ولذا نقول لمن أراد الاجتهاد والتوفيق في مواسم الخير، نقول له: عود نفسك على الطاعة طوال العام حتى إذا أتت مواسم الاجتهاد أمكنك الاجتهاد، فيا حسرةً على ليالي القدر التي أضاعتها النفس بسبب كسلها!! ويا أسفى على عشر ذي الحجة التي فرط فيها المرء بسبب كسله!! وواحناه على أوقات قضائها المرء في جوار الكعبة (في عمرة أو حج)، فما عرف قدر هذه النعمة حق المعرفة، فضاعت الأوقات وفاتت الخيرات!!

الآفة الرابعة- ضعف الإيمان:

فإنَّ الكسل يُفَعِدُ عن الأعمال الصالحة التي تزيد الإيمان في قلب العبد، فإذا تركها العبد ضعف الإيمان في قلبه، كما أنَّ الكسل يطيل أمل العبد وينسيه الموت والآخرة، وذلك من أكبر أسباب ضعف الإيمان، كما أنَّ الكسل يضعف إرادات العبد ويضعف القلب، فيصير عرضةً للمعاصي والمخالفات التي مَنْ شأنها أن تضعف الإيمان، ويظهر ذلك في ضعف الأعمال القلبية من زهدٍ و يقينٍ و رجاءٍ وخوفٍ وتوكلٍ وصبرٍ ورضا، وغيرها من أعمال القلوب.

الآفة الخامسة- كراهية الموت:

فإنَّ الكسل يورث العبد كراهية الموت (أي: الكراهية المذمومة شرعاً وليست الكراهية الجبلية التي جُبل الناس عليها)، فلا يطلب الشهادة، ولو حضرت أسبابها، ولا يشتاق إلى لقاء الله، وذلك لما يرى من تقصيره في الطاعة وعدم تحقيقه التوبة النصوح بعد، فتكره نفسه الموت حتى في مواطن الشهادة، ولربما تخلّفت عن الجهاد مع إمكانه، وهذه حالٌ مخوف، ففي الحديث: «مَنْ لَمْ يَغْزُ أَوْ تَحَدَّثْهُ نَفْسُهُ بِالْغَزْوِ مَاتَ عَلَى شَعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ».

الآفة السادسة- فقدان حلاوة الطاعة:

فإنَّ الكسل يورث القلب فتوراً وضعفاً يفقدانه حلاوة الطاعة، وتصير الطاعات مجرد حركات تؤدَّى، أو أفعالاً ظاهرةً تلتزم دون أن تورث القلب خشوعاً أو إقبالاً، ودون أن تُكسِبَ النفس تهذيباً، وإذا صار هذا الحال هو حال العبد، لزمه الملل والسآمة والحزن، بخلاف الذي يلزم الطاعات على مدار الأوقات، فإنَّه يجد السعادة والفرح والسرور.

قال ابن رجب: «أعياد الناس تنقضي، فأما أعياد العارفين فدائمة، أوقات العارفين كلّها فرحٌ وسرور بمناجاة مولا هم وذكره، فهي أعياد»، قال ذو النون: «كل مطيع مستأنس، وكل عاصٍ مستوحش، وفي هذا يقول بعضهم:

أمستوحش أنت ممّا جنيت فأحسن إذا شئت واستأنس».

وقال شيخ الإسلام: «إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحًا فاتهمه، فإنّ الرب شكور، يعني أنّه لا بد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه، وقوة انشراح، وقرّة عين، فحيث لم يجد ذلك، فعمله مدخول».



الفصل الثالث

أسباب الكسل

١ - طول الأمل ونسيان الموت:

قال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «وَأَمَّا طول الأمل فإنه العائق عن كل خير وطاعة، الجالب لكل شرّ وفتنة، واعلم أنّك إذا طال أملك هاج لك منه أربعة أشياء:

(أ) ترك الطاعة والكسل فيها.

وصدق داود الطائي حيث قال: «مَنْ خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن أطال أمله ساء عمله».

وقال يحيى بن معاذ: «الأمل قاطع من كل خير، والطمع مانع من كل حق، والصبر صائر إلى كل ظفر».

(ب) ترك التوبة والتسوية بها، تقول: سوف أتوب، وفي الأيام السعة، وربما اختطفك الأجل قبل إصلاح العمل.

(ج) الحرص على الجمع والاشتغال بالدنيا عن الآخرة.

(د) القسوة في القلب والنسيان للآخرة؛ لأنك إذا أملت العيش الطويل؛ لا تذكر الموت والقبر، كما قال علي بن أبي طالب: (أخوف ما أخاف عليكم: طول الأمل واتباع الهوى؛ فإنّ طول الأمل يُنسي الآخرة، واتباع الهوى يصدُّ عن الحق)» (انتهى كلامه من كتاب منهج العابدين بتصرف).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وَأَمَّا قصر الأمل: فهو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب؛ فإنه يبعثه على معافاة الأيام، وانتهاز الفرص التي تمرّ السحاب، ومبادرة طيّ صحائف الأعمال، ويُزهِده في الدنيا،

وَيُرْغَبُ فِي الْآخِرَةِ، فَيَقُومُ بِقَلْبِهِ - إِذَا دَاوَمَ مَطَالَعَةَ قَصْرِ الْأَمَلِ - شَاهِدٌ مِنْ شَوَاهِدِ الْيَقِينِ يَرِيهِ فَنَاءَ الدُّنْيَا، وَسُرْعَةَ انْقِضَائِهَا، وَقِلَّةَ مَا بَقِيَ مِنْهَا، وَأَنَّهَا قَدْ تَرَحَّلَتْ مَدْبِرَةً، وَيَرِيهِ لِقَاءَ الْآخِرَةِ وَدَوَامِهَا، وَأَنَّهَا قَدْ ارْتَحَلَتْ مَقْبَلَةً، وَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا وَعَلَامَاتُهَا» (انتهى كلامه من كتاب مدارج السالكين مختصرًا).

وقال بعضهم:

إِذَا أَمْسَيْتَ فَابْتَدِرِ الْفَلَاحَا وَلَا تُهْمَلْهُ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَا
وَتُبِّ مِمَّا جَنَيْتَ فَكَمْ أَنَاسٍ قَضَوْا نَحْبًا وَقَدْ بَاتُوا صَحَا

يقول د/ خالد أبو شادي: «يا طويل الأمل... يا كثير الزلل... يا عظيم الكسل... يا عديم الوجل... الإفاقة الإفاقة قبل نزول الفاقة، فما أطلق عبد العنان لأمله إلا عثر في الطريق بأجله».

وقال أيضًا: «إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس، هكذا قالها ابن عطاء وصدق، فإن كنت تظن أن الشيطان سيعطيك مهلة للتوبة أو سترك فارغًا لتراجع نفسك، فاعلم أنك واهم، فالعجل العجل... والبدار البدار، واذكر أن الكسل آفة أعجز المرضى، وما بسقت فروع ندم إلا من بذرة كسل، ومن ملّ الحركة حُرِمَ البركة، ومن أضعاف الفرصة تجرّع الغصة».

ورحم الله من قال:

قائد الغزلة الأمل	والهوى رائد الزل
قتل الجهل أهله	ونجا كل من عقل
فاغتني دولة الشبي	بة واستأنف العمل
أيها المبتني الحصو	ن وقد شاب واكتهل
أخبر الشيب عنك أن	ك في آخر الأجل

فَعَلَامَ الْوَقُوفِ فِي عَرْصَةِ الْعِجْزِ وَالْكَسْلِ
أَنْتَ فِي مَنْزِلٍ إِذَا حُلَّ لَهُ نَازِلٌ رَحَلَ

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «طوبى لمن غسل دَرَنَ الذنوب، ورجع عن خطاياهِ قبل فوات الأوبة، وبادر الممكن قبل أن لا يمكن، مَنْ رَأَيْتَ مِنْ آفَاتِ دُنْيَاهِ سَلِمَ، وَمَنْ شَاهَدَتْهُ صَحِيحًا وَمَا سَقَمَ، وَأَيَّ حَيَاةٍ بِالموتِ لم تنختم، وَأَيَّ عُمُرٍ بالساعاتِ لم ينصرم، إِنَّ الدنْيَا لَغُرُورٌ حَائِلٌ، وَسُرُورٌ إِلَى الشَّرِّ أَيْلٌ، تُرْدِي مُسْتَزِيدَهَا، وَتُؤْذِي مُسْتَفِيدَهَا، بَيْنَمَا طَالِبُهَا يَضْحَكُ أَبْكْتَهُ، وَيَفْرَحُ بِسَلَامَتِهِ أَهْلَكَتَهُ، فَندَمَ عَلَى زَلَلِهِ إِذْ قَدِمَ عَلَى عَمَلِهِ، وَبَقِيَ رَهِينُ خَوْفِهِ وَوَجَلِهِ، وَوَدَّ أَنْ لَوْ زِيدَ سَاعَةً فِي أَجَلِهِ،

وَلَا بَدَّ مِنْ زَادٍ لِكُلِّ مُسَافِرٍ سَبِيلُكَ فِي الدُّنْيَا سَبِيلُ مُسَافِرٍ

أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ المَوْتَ يَسْعَى فِي تَبْدِيدِ شَمْلِكَ، أَمَا تَخَافُ أَنْ تُوْخِذَ عَلَى قَبِيحِ فَعْلِكَ، وَاعْجَبًا لَكَ مِنْ رَاحِلٍ تَرَكْتَ الزَّادَ فِي غَيْرِ رَحْلِكَ، أَيْنَ فُطْنَتُكَ وَيَقْظَتُكَ وَتَدْبِيرُ عَقْلِكَ، أَمَا بَارَزْتَ بِالقَبِيحِ فَأَيْنَ الْحَزَنُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْحَقَّ يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْعَلَنَ، سَتَعْلَمُ خَبْرَكَ يَوْمَ تَرْحَلُ عَنِ الْوُطَنِ، وَسَتَنْتَبِهَ مِنْ رِقَادِكَ وَيَزُولُ هَذَا الْوَسْنُ.

يَا دَائِمَ الْخَطَا وَكَمْ عُلْمٌ وَرِيضٌ، يَا مَعْجَبًا بِالسَّلَامَةِ وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مَرِيضٌ، لَا اللِّسَانَ مَحْفُوظٌ وَلَا الْجَفْنَ غَضِيضٌ، لَقَدْ نَزَلَتْ بِكَ الْمَعَاصِي إِلَى أَسْفَلِ حَضِيضٍ، لَيْتَ شَعَرِي بَعْدَ المَوْتِ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ، لَقَدْ تَعَمَّى عَلَيْكَ وَاللَّهُ الْمَذْهَبُ.

يَا غَافِلًا عَنْ هَذِهِ الدَّارِ (أَيِ الْجَنَّةِ)، يَا رَاضِيًا عَنِ الصِّفَا بِالْأَكْدَارِ، الْبَدَارُ الْبَدَارُ، سَابِقُ وَقُوعِ المَوْتِ قَبْلَ فُوتِ الْاِقْتِدَارِ، وَيَحْكُ أَمَا تَرَى سَلْبَ الْجَارِ، أَمَا يَشَوِّقُكَ مَدْحُ الْأَبْرَارِ، أَمَا تَخَافُ الشَّيْنِ أَمَا تَحْذَرُ الْعَارِ، إِلَى كَمْ هَذَا الْجَهْلُ وَالنَّفَارُ، مَا هَذَا التَّقَاعُ وَالْمُحَقِّ قَدْ سَارَ، إِنَّ طُوفَانَ الْهَلَاكِ قَدْ دَارَ حَوْلَ الدَّارِ، وَإِنَّ خَيْرَاتِ الْأَسْحَارِ إِذَا رَأَاهَا الطَّرَفُ (الْعَيْنُ) حَارَ» (انتهى كلامه من كتاب «التبصرة بتصرف»).

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «أيها العبد انظر بعين فكرك وعقلك، هل تجد سبيلاً لخلاص مثلك مع إقامته على فعلك، أين اعتبارك بانطلاق أسلافك، أين فكرك في فراق ألافك، متى تنتقل عن قبيح خلافك...»

قل للمفرط يستعد	ما من ورود الموت بُدَّ
قد أخلق الدهر الشبا	بَ وما مضى لا يُستردُّ
أو ما يخاف أخو المعَا	صي مَنْ له البطش
يومًا يُعاين موقضًا	الأشدُّ فيه خطوبٌ لا تُحدُّ
فإلام يشغل الفتى	في لهوهِ والأمرِ جدُّ

(انتهى كلامه من كتاب التبصرة)

قلت: وقد صدق مَنْ قال:

لاهَ بدنياه والأيام تنعاه	والقبر غايته والحد مثنواه
يلهو ولا يدري ما أُعِدَّ له	إذا لأحزنه ما كان ألهاه

وكذا مَنْ قال:

يا ساهيًا عمّا يُرادُ به	آن الرحيلُ وما حَصَلت من زادٍ
ترجو البناءَ صحيحًا سالمًا أبدًا	هيهات أنت غداً فيمن غدا غادٍ

وما أحسن ما قاله الإمام أحمد لرجلٍ سأله الوصية، فقال: «انظر إلى أحبِّ ما تريد أن يجاورك في قبرك، فاعمل به» والله دَرَّ عون بن عبد الله حين سئل عن أنفع أيام الدنيا للمؤمن؟ فقال: «يومٌ ظنَّ أنه لا يدرك آخره».

٢- الطاعة من أجل السعادة ليس إلا:

وهذا سببٌ فتور وتكاسل كثيرٍ من المبتدئين لطريق الخشوع والإنابة، فيطلب أحدهم بطاعته السعادة واللذة ليس إلا، فإذا تأخرت فتر وملَّ وانقطع، وغالبًا ما تتأخر

السعادة ابتلاءً من الله وتمحيصاً، وأمّا المؤمن ذو البصيرة، فإنّ همّه القيام بالطاعة التي أمر بها، واتباع سنة الرسول ﷺ، نعم - يطلب مع ذلك السعادة واللذة، ولكن ليس هذا هو أكبر الهَمِّ، بل قد وطّن نفسه على الاستقامة على الطاعة والمداومة عليها سواءً أوجد اللذة أم لا، ومن كان هذا حاله لم ينقطع عن الطاعة - بفضل الله - وإذا وجد فتوراً أو مللاً تضرّع إلى ربه بتبتيته وجعله مستقيماً.

٣ - صحبة ضعاف الهمة:

فإنّ المرء إذا صحب ضعاف الهمة أورثه ذلك كسلاً وفتوراً بخلاف ما لو صحب أصحاب الهمم العالية، ولا عذر لأحدٍ في ترك ذلك؛ فإنّ مَنْ لم يتيسر له مصاحبة أجساد الصالحين، لم يعوزه مصاحبة سير السابقين من السلف - رحمهم الله - وهذه باقة من صفاتهم عسى أن تكون سبباً لسلوك العبد طريقهم:

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «سبحان مَنْ قَضَى عَلَى الْغَافِلِينَ كَسْلاً وَقَعُوداً، وَرَفَعَ الْمُتَّقِينَ عَلَواً وَصُعُوداً، وَمَنْحَهُمْ مِنْ إِنْعَامِهِ فَوْزاً وَسُعُوداً، اكْتَفَوْا مِنَ اللَّيْلِ بِسِيرِ النَّوْمِ، وَاشْتَغَلُوا بِالصَّلَاةِ وَبِالصَّوْمِ، وَكَانَتْ وَاللَّهِ هِمُّ الْقَوْمِ فِي صَلَاحِ قُلُوبِهِمْ، قَامُوا قِيَامَ الْمُسْتَعِدِّ، وَوَرَدُوا بَحْرَ الْجُودِ الْعَدِّ، وَتَسَلَّحُوا صَلَاحَ الْعَزْمِ وَالْجِدِّ.

✽ بالغ القومُ في التحقيق، وأخذوا بالأمر الوثيق، وأنذروهم الموت فجَدُّوا حتى خرجوا من المضيق، فأما البطال فإنه لما تلمّح الطريق، رآه قد طال.

✽ صام القومُ عن الشهوات، وقاموا لله في الخلوات، وحبسوا الألسن عن فضول الكلمات، فانقضى رمضان صومهم، وجاء شوال.

✽ كم بينك وبينهم، أسخّن الشرُّ عينَكَ وأقرّ الخيرُ أعينَهُم، نالوا الحظَّ ونلتَ الحضيضَ، أين أنت وأين هم، وإنما يكال للعبد كما كال.

❁ لله دَرَّهم أخلصوا الأعمال وحققوها، وقيدوا شهواتهم بالخوف وأوثقوها، وسابقوا الساعات بالطاعات فسبقوها، وخلّصوا أعمالهم من أشرار الرياء وأطلقوها، وقهروا بالمجاهدة أغراض النفوس الردية فمحقوها.

❁ اجتهدوا في طاعة مولاهم ليرضى، وحضّوا أنفسهم لطلب الحظّ الأَحْظَ حَظًّا، وغضّوا أبصارهم عن الشهوات غَضًّا، بادروا أعمالهم لِعِلْمِهِمْ أنها ساعات تتقضى.

❁ ابتلاهم فرضوا وصبروا، وأنعم عليهم فاعترفوا وشكروا، وجاءوا بكل ما يرضى ثم اعتذروا، وجاهدوا العدو (أي: النفس والشيطان والهوى) فما انقشعت الحرب حتى ظفروا. كانوا يخلصون الطاعة، ولا يضيعون ساعة، فيا فخرهم إذا قامت الساعة.

❁ يا من يخطر في ثياب الغفلة يتبختر ويتجبر، وقبائح تكتب وهو لا يحسّ ويُزبر، بين يديك يومٌ قريبٌ ما يتأخر، ويحك تقوم إلى صلاتك وأنت متكاسل، وتدخل في الصلاة بقلب غافل، وتستعجل في الصلاة لأجل العاجل، وإذا نظرت بعد الصلاة إلى الحاصل: فالجسد أقبَل والقلب أدبر.

❁ يا من سبقه الصالحون إلى الخيرات وتخلّف، وأذهب عمره في البطالة وتسوّف، وعرف المصير فما عرف النجاة ولا تعرّف، وكَلَفَ بالدنيا (شدة المحبة لها) فإذا طلب الأخرى تكَلَفَ، يا مَنْ مرضه قد تمكّن من جُمْلته وتصرّف، اطلب الشفاء يا مَنْ على شَفَا هلكة قد أشرف) (انتهى من كتاب التبصرة بتصرف).

تنبيه: ينبغي ملازمة المرء لقراءة سير السلف لمعرفة أحوالهم واجتهادهم في الطاعات عسى أن يكون ذلك سببًا في علو همته ومن الكتب الهامة في ذلك «كتاب سير أعلام النبلاء، الزهد للإمام أحمد، كتاب تهذيب حلية الأولياء».

٤- فضول الطعام:

قال ابن القيم: «وأما فضول الطعام: فهو داعٍ إلى أنواع كثيرة من الشر؛ فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي، ويثقلها عن الطاعات، وحسبك بهذين شراً».

قلت: كثرة الطعام تورث العبد الكسل عن الطاعة خاصة إذا شرب العبد الماء بعد الأكل.

قال بعضهم: «لا تأكلوا كثيراً، فتشربوا كثيراً، فتناموا كثيراً، فتخسروا كثيراً».

وقال سفيان: «كانت وصية الصالحين: من يكثر الأكل لا يجد لذة العبادة، ومن ينم كثيراً لا يجد في عمره بركة، ومن يطلب رضا الناس فلا ينتظر رضا الله، ومن يكثر الكلام بفضول وغيبة فلا يخرج من الدنيا بخير».

وقال أحد الحكماء: «والكسل ميراث الشبع، فإن النفس إذا شبعت قويت، وإذا قويت أخذت حظها، وغلب عليها الكسل، فإذا جاعت غلب عليها القلب، فحملها على الطاعة، وأسقط عنها الكسل»، وقال أحد الصالحين: «الجوع رأس مال العباد».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «والامتلاء من الطعام يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله، وإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان، ووعدته، ومنّاه، وشهّاه، وهام به في كل واحد؛ فإن النفس إذا شبعت تحرّكت، وجالت وطافت على أبواب الشهوات، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت».

٥- ميل النفس إلى الراحة:

فإن النفس تتكاسل عن الطاعة طلباً منها للراحة، فهي تظن أن الراحة في القعود عن العمل، وهذا خلاف ما أخبر به النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، وخلاف ما أخبر به الصالحون من بعده، ففي الحديث: «يعقد الشيطان على قافية رأس

أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، عليك ليلٌ طويلٌ فارقد، فإن استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت العقد كلها وأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان» (رواه البخاري ومسلم).

فجعل الرسول سبب النشاط ترك النوم والراحة، وجعل النوم والراحة سبب الكسل والتعب، وقد قيل: طلب الراحة للرجال غفلة، وقال الشافعي: «طلب الراحة في الدنيا لا يصح لأهل المروآت».

وقال أحد الصالحين: «من أراد الراحة ترك الراحة»، وقيل للإمام أحمد: متى يجد العبد طعم الراحة؟ فقال: «عند أول قدم يضعها في الجنة»، وقيل لأحد الصالحين: كيف السبيل ليكون المرء من صفوة الله؟ فقال: «إذا خلع الراحة وأعطى المجهود في الطاعة»، وقال أحد الحكماء في الحديث: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» فيجب أن يكون عيش المؤمن فيها عيش المسجونين، لا عيش المستريحين.

٦ - التقصير في أمر الصلاة؛

وليس المقصود بالتقصير ترك الصلاة؛ فإن فاعل ذلك قد اختلف العلماء في إسلامه، فضلاً عن أن يكون ممتن ينافس على درجات الإيمان، ويسعى في نفي الكسل عن نفسه، ولكن المقصودين هم المقصرون في إقامة الصلاة وحسن أدائها بخشوعها وإخباتها؛ فإن هذا التقصير يورث النفس الكسل، ويحرم القلب من حلاوة الإيمان، بخلاف الخشوع في الصلاة والإكثار منها؛ فإن ذلك يورث القلب قوة وإيماناً ينذر معهما الكسل.

وليعلم السالك لطريق الإيمان أن الصلاة أول ما يُجاسب عليه من عمله، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإذا فسدت فسد سائر عمله كما أخبر النبي ﷺ، وهذا يقتضي ضرورة اهتمام العبد بها وسعيه لتكميلها قدر استطاعته، كما أن فيه الإخبار

باستقامة قلبه على الإيمان وأعضائه على الطاعة، فتكون أعماله صالحةً إذا هو أصلح أمر صلاته؛ فإنّها - كما أخبر الرسول - إذا صلحت صلح سائر عمله، وكذا لو فسدت فسدت سائر عمله.

وقد شرع الله صلاة النوافل تكميلاً للفرائض، فينبغي المحافظة عليها، فإذا صلّى المرء النوافل الراتبة والفرائض ولم يجد راحةً وطمأنينةً، فليكثر من النوافل المطلقة على مدار اليوم - في غير أوقات الكراهة - تكميلاً للفرائض الحاضرة والسابقة، ففي الحديث: «الصلاة خير موضوع»، وهذا الاستكثار كما يشمل الإكثار من النوافل يشمل كذلك الإطالة فيها والإكثار من القراءة فيها والإكثار من التسبيحات في الركوع والسجود، فهذه هي الصلاة التي تنفي الكسل عن القلب وتورثه حلاوة الإيمان، وليحذر المرء من التهاون في صلاة النوافل والتكاسل عن قضائها إذا فاتت حتى لا تسترسل النفس في ترك الطاعة والتقصير، فتعتاده وتصعب عليها المواظبة بعدُ.

٧- التقتير في قراءة القرآن؛

فإن تلاوة القرآن والإكثار منها لها أثرٌ عجيب في نشاط النفس وإقبالها على الطاعة، وقد أخبر سبحانه بأثر القرآن في تقويم النفوس وهدايتها فقال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الأنعام: ٩)، وكلّمَا أكثر المرء من قراءة القرآن كلّما وجد بركته والانتفاع به أكثر، وأكمل الأحوال ما وصّى به رسولنا عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بقوله: «اقرأ القرآن في سبع» أي لا يتمّ قراءته كله في أقل من سبعة أيام، وكلّمَا كان المرء متدبراً في قراءته للقرآن، كلّما كان أذهب للكسل والفتور عن نفسه.

وقد ذكرتُ - بحمد الله - طرفاً من أثر القرآن العظيم في زيادة الإيمان في القلوب في رسالة «الاستقامة»، وكيف أنّ التزام العبد قراءته وإكثاره منها تورثه الاستقامة والثبات على الطاعة، بل وترقيّه في درجات الإيمان، وتنفي عنه الشعور بالتيه والضياع، فليراجع الرسالة مَنْ شاء.

وليحذر طالب العلم والداعية من التقصير في حق الصلاة وقراءة القرآن بزعم الدعوة وطلب العلم؛ فإنَّ قراءة القرآن وإقامة الصلاة هما الوقود لآلة القلب، فمن قصر في حقهما أورثه ذلك الإهمال والملل والكسل والانقطاع، فيضيع من الوقت أضعاف ما ترك القرآن والصلاة من أجله، فليس أحدٌ أحقَّ بالخير من نفسك التي بين جنبيك، وفي الحديث: «مثل الذي يعلم الناس وينسى نفسه كمثل المصباح يضيء للناس ويحرق نفسه»، ثم إنَّ فاقد الشيء لا يعطيه.

٨- نسيان الذنوب والعجب بالعمل:

فإنَّ النفس تأنس بالطاعة وتستحسن عملها، وربما لم تذكر سيئاتها، وذلك سببٌ كسلها عن الطاعة؛ فإنَّ النفس إذا فرحت بطاعتها؛ وكلها الله إليها، فتركها، كما أنها إذا لم تذكر سيئاتها قلَّ خوفها، فيقلَّ عملها ويزيد كسلها، وقد عرف الصالحون ذلك، فكانوا يكثر من ذكر سيئاتهم وتقصيرهم، ويستعظمون كلَّ زلَّةٍ لكونها تقصيرًا في حق العظيم الجليل سبحانه، ويستصغرون طاعاتهم لعظيم فضل الله ونعمه عليهم، وقد قالوا: «على قدر استعظامك للطاعة على قدر ما تصغر عند الله، وعلى قدر استصغارك للطاعة على قدر ما تعظم عند الله».

وقال يونس بن عبيد: «إني لأعدّ مائة خصلة من خصال الخير ما في واحدة منها»، وكان كثير من السلف لكثرة تفكيرهم في سيئاتهم لا يعجبون بأعمالهم الصالحة ولا يؤمّلون فيها بل يؤمّلون في رحمة الله، وفي الحديث: «ليس أحدٌ يدخل الجنة بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته» (رواه البخاري ومسلم).

وقيل لأحد الصالحين: «بم ترتجي أكثر ما ترتجي؟ فقال: بيأسى من جُلّ عملي».

وقال مالك بن دينار: «إمّا طاعة الله أو النّار، فقال محمد بن واسع: إمّا رحمة الله أو

فقال مالك: ما أحوجني إلى معلّم مثلك».

وقال أحد الصالحين: «إن أردت الوصول إلى الله فعليك بالذلة والافتقار، وإيّاك والعُجب بعملك».

ويروى أنّ المسيح قال: «يا معشر الحواريين كم من سراجٍ قد أطفأته الريح، وكم من عابدٍ قد أفسده العُجب».

يقول ابن القيم: «إذا نسي السالك نفسه وفرح بالطاعة فرحاً لا يقارنه خوفٌ، فليرجع من السير إلى بدايات سلوكه وطلبه، عسى أن يعود إلى سابق ما كان منه من السير الحثيث الذي كانت تسوقه الخشية، فيترك الفتور الذي لا بد أن ينتج عن السرور؛ إذ ربما كانت للسالك بداية ذات نشاط، كان فيها عالي الهمة، فيفيده رجوعه إلى ذكريات تلك البداية تجدد العزيمة».

٩- كثرة النوم؛

فإن كثرة النوم تورث الكسل خاصةً بعد الفجر وبعد العصر وفي وقت السحر، والعجيب أنّ النوم في هذه الأوقات - في أغلب الأحيان - يزيد النفس افتقاراً إلى النوم كالشارب من ماء البحر، ويورثها كذلك الكسل والفتور، فلا ينبغي النوم فيها إلّا لعذرٍ.

وليحذر السالك لطريق الهداية من الاسترسال في النوم خاصةً في فصل الشتاء؛ فإنّه - على ما فيه من ضياعٍ للوقت - لا يزيد النفس إلّا كسلاً، ويعين المرء على تقليله من نومه في الشتاء؛ عدم مبالغته في الاستكثار من وسائل الدفء من ملابسٍ وغيره، بل يستعمل ما يقيه أذى البرد دون أن يجلب له الكسل، ويعينه كذلك عدم إكثاره من الطعام والشراب بل يتناول ما يسدُّ جوعه دون أن يجلب له الخمول.

وقد أدرك السلف مغبة الإكثار من النوم، فأكثروا من الاستعاذة بخالقهم من كثرتة، فعن بعضهم أنه كان يدعو فيقول: «اللهم اشفني من النوم باليسير»، وقال آخر: «لولا أن النوم جبلة لدعوتُ الله ألا أنام».

١٠- الإعراض عن طلب العلم:

فإن العلم يشغل على العبد أوقاته، فلا يكاد يجد - مع انشغاله بتحصيله وتعليمه - الكسل، وكيف يجد الكسل وهو يرى العلم كثيرًا والوقت قليلًا؟! أم كيف تسمح له نفسه بالإكثار من النوم وتضييع الوقت وهي تود أن لو كان اليوم الواحد أيامًا، والعُمُر أعمارًا لتروي من العلم غليلها وتقضي منه نهمتها!!

وإنما يصل المرء إلى هذه الدرجة من التعطش لطلب العلم بمداومته على طلبه وسعيه في تحصيله مع عدم إخلاله بمقتضى هذا العلم وهو العمل، وإذا وصل المرء إلى هذه الدرجة صار يأخذ من وقت نومه وأوقات راحته ما يمكنه أخذه ليقضي بعض وطره من العلم والعمل، فكيف يجد الكسل من هذه حاله؟

وأما من أعرض عن طلب العلم فإنه ربما يجد الفراغ من الوقت، فيضيعه بلا فائدة؛ فإنّ التوفيق لشغل أوقات الفراغ لا يكون إلا لمن تعودت نفسه على بذل الجهد في أوقات الشغل، والله الموفق وحده لا شريك له.

وإنما صار الانشغال بالعلم أنفى للكسل عن النفس من الانشغال بالعبادة؛ لأنّ لذة تحصيل العلوم يستشعرها المرء سريعًا - في الغالب - فيكون ذلك مدعاة لمواصلته في الطلب ولمزيد جدّه وسعيه، بخلاف لذة العبادة فإنّها قد تتأخر نوعًا ما، فربما ملّ العابد وفتر وتكاسل، ولكن لا تستقيم النفس على طلب العلم وتدوم على ذلك إلا باستقامتها على قدر من العبادة كذلك، وقد زدت ذلك إيضاحًا في كتاب «تهذيب النفوس»، والحمد لله.

كما أنَّ الانشغال بالعلم يُبَصِّرُ المرءَ بالنوايا الصالحة، فتكون له نية في كل خطوةٍ يخطوها، وكلَّ عملٍ يعملُه، حتى المباحات من مأكَلٍ وملبسٍ ونومٍ وغيرها، وفي الحديث: «وفي بضع أحدكم صدقة».

١١ - الإعراض عن الدعوة إلى الله:

فإنَّ دعوة الناس إلى الخير وتعليمهم إيَّاه من أكبر أسباب نفي الكسل عن النفس؛ لأنَّ المرءَ إذا خَصَّصَ وقتًا لتحفيظ القرآن أو تعليم العلم ونشره ضاقت عليه أوقات طلبه للعلم وأوقات عبادته، فكيف يتكاسل وهو يرى الوقت المتبقي له يسيرًا؟ بخلاف الفارغ من ذلك، فإنَّ كثرة الوقت في نظره ربما تكون مدعاةً لتكاسله، وهذا أمرٌ مشاهدٌ ومجربٌ.

كما أنَّ الداعية إذا خَصَّصَ لنشر علمه وقتًا، فإنَّ ارتباط الناس به في ذلك سيمنعه من التخلف عنهم، ولو وجد كسلًا أو فتورًا، ولو تخلف مرةً لم يتخلف الأخرى، وهذا أمرٌ مشاهدٌ ملموسٌ، وكم وجد بعض الدعاة في أنفسهم كسلًا أو رغبةً في النوم أو الراحة، وهم ذاهبون لنشر العلم، فلمَّا ألقوا دروس العلم وجدوا النشاط وتلاشت رغبتهم في النوم، ولربما لو ناموا وتكاسلوا لزد كسلهم، ولما وجدوا في النوم الراحة.

إلَّا أنَّه لا بد من الموازنة بين العلم والعمل والدعوة، والإخلال بهذا التوازن يؤدي إلى الكسل.

١٢ - الإعراض عن التكسب من أجل المعاش:

فإنَّ الانشغال بالمعاش يعود النفس على بذل الجهد وأداء الواجبات، ولو كانت النفس كسولةً معرضةً، خاصةً وأنَّ أوقات العمل - في أغلب الأحيان - مضبوطة بأوقات محدَّدة لا يخلُّ العاملُ بها، ولو كانت نفسه متكاسلةً كارهةً، وإنَّ أخلَّ مرَّةً لم يستطع ذلك على الدوام، والنفسُ - غالبًا - لا تلتزم إلَّا بالإلزام؛ ولذا كثرت وصايا الزهاد والعباد

لمبتدئي طريق الاستقامة بإلزام النفس بالخير، وعدم انتظار مطاوعتها على ذلك؛ فإنّها إن أطاعت مرةً تكاسلت مرّات؛ ولذا أيضًا كانت أفضل طريقة لطلب العلم الشرعي ما كان فيها إلزام؛ كالمدارس الشرعية التي تدرس فيها العلوم الشرعية وتُعقد فيها الامتحانات، ولا ننكر فضل التفرغ التام لصاحب الهمة العالية - إن كان معه ما يكفّه عن سؤال الناس - ولكن قد ضعفت الهمم وقلّت العزائم - إلّا من رحم الله.

فإذا تعودت النفس - بسبب سعيها في طلب المعاش - على النشاط وبذل الجهد فيها ينبغي ولو كانت متكاسلةً، أمكنها التفرغ التام للطاعة - عند إمكانه - دون تكاسل إلّا ما لا بدّ منه.

وأفضل أوقات السعي للكسب بعد أداء صلاة الصبح وقراءة الأذكار الموظفة صباحًا؛ فقد ورد في الحديث: «اللهم بارك لأمتي في بكورها»، وتظهر أهمية الانشغال بالمعاش في تربية النفس وتعويدها على النشاط، يظهر ذلك في أوقات البرد الشديد التي لا تكاد النفوس - في الغالب - تُقدم على العمل طواعيةً فيها، ولولا لزوم العمل لما تركت الفراش، فيضيع الوقت؛ ولربما لو خرج المرء لعمله لقرأ القرآن أو ذكر الله أو دعا إليه، فيكون خروجه للكسب حينئذٍ أولى له.

ولكن لا بد من تكسّب المرء من الحلال، ولا بد أيضًا من عدم المبالغة في طلب الكسب إذا كان ذلك يشغل قلب المرء عن الطاعة، ويمنعه من طلب العلم وتعليمه، وما قلّ وكفى خيرٌ ممّا كثر وأهلى.

فائدة:

قال صلى الله عليه وسلم: «إن كان يسعى على نفسه ليكفّها عن المسألة ويغنيها عن

الناس فهو في سبيل الله».

وقال عمر بن الخطاب: «استغن عن الناس يكن أصون لدينك وأكرم لك عليهم»، وقال أبو قلابة لرجل: «لأن أراك تطلب معاشك أحب إليّ من أن أراك في زاوية المسجد (يعني: لو كان لا يجد ما يكفيه ويسأل الناس)».

وقال أبو سليمان الداراني: «ليس العبادة عندنا أن تصفّ قدميك (أي: للصلاة) وغيرك يقوت لك، ولكن ابدأ برغيفك فأحرزه ثم تعبّد».

وروي عن لقمان أنّه قال لابنه: «يا بني استغن بالكسب الحلال عن الفقر، فإنّه ما افتقر أحد قط إلّا أصابه ثلاث خصال: رقة في دينه، وضعف في عقله، وذهاب مروءته» (قلت: هذا في أغلب الأحوال وليس على إطلاقه).

١٣ - فقدان حلاوة الطاعة:

فإنّ فقد المرء لحلاوة الطاعة من أكبر أسباب الكسل عن الطاعات؛ لأنّ النفس إذا ذقت حلاوة الطاعة رغبت فيها وسعت إليها طواعيةً لما تجده فيها من لذة وسعادة، بخلاف ما لو فقدت هذه الحلاوة، فمن أراد إقبال نفسه على الطاعات دون كسل، فعليه بالسعي في أسباب تحصيل حلاوة الطاعات، وإنّما تحصّل النفس تلك الحلاوة بمداومتها على الأعمال الصالحة، واجتهادها في حسن أدائها على أكمل الوجوه، والتضرع إلى الله بتحصيل تلك الحلاوة، إلى جانب تهذيب النفس بالاقتصاد في تناول الشهوات المباحة دون إسرافٍ أو نهمٍ.

تنبيه: اقتصاد النفس في تناول الشهوات المباحة لا يعني منع النفس بالكلية كما ظنّ كثيرٌ من الصوفية، بل المقصود - كما كان يفعل النبي ﷺ - عدم الامتناع الشرعي من تناول الطيبات المباحة ولكن لم يكن يشبع ﷺ في أغلب الأحيان، وليعلم السالك طريق الهداية أنّ الخلل في فهم هذا الأمر ربما أورث الكسل والانقطاع عن الطاعة، وهذا مشاهدٌ فيمن منعوا أنفسهم من الطيبات بالكلية، فإذا بأنفسهم

تنازعهم أشد المنازعة إليها - فهي لا تريد الشعور بالحرمان أو المنع - فإذا تناولوها تولد لديهم الشعور بالعجز عن الزهد، فينقطعون عن مجاهدة النفس أصلاً، بل ربما أورثهم ذلك الإسراف في تناول المباحات - فوق ما اعتادوه قبل سلوكهم طريق المجاهدة - لكي ينفوا عن أنفسهم الشعور بالحرمان، فاللازم إذاً مداراة النفس والرفق بها حتى يتم للعبد مراده من تهذيبه لها، والنفوس في ذلك على درجات:

(أ) نفسٌ إذا عرض عليها صاحبها سير السلف وأقوالهم في الزهد، أورثها ذلك قصر الأمل والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، فترى الآخرة قريبة، فمثل هذه النفس يخبرها صاحبها عند منعه لها من المبالغة في الشهوات المباحة، يخبرها بأنه إنما يوفر عليها نصيبها في الآخرة التي هي عن قريب آتية، كمن صام يوماً ونازعتة نفسه إلى الطعام والشراب، فإنه إذا أخبرها بأنه سيعطيها ما منعها منه عند غروب الشمس صبرت لما تراه من قُرب وقت الإفطار، وهكذا كان حال نفوس الصحابة والسلف الصالح - رضي الله عنهم أجمعين -.

(ب) نفسٌ لم تصل بعدُ إلى اليقين بقرب الآخرة وترى أنَّ الصبر عن الشهوات إلى حين القدوم على الله أمدٌ بعيدٌ، وهذا نقصٌ بلا شك، فينبغي لصاحب هذه النفس أن يجعل لها أجلاً قريباً في ظنّها يمكنها فيه من بعض شهواتها المباحة مع التنبه لأمر: ❁ لا بد أن يكون تناولها لشهواتها دون إسرافٍ أو مبالغة.

❁ أن يكون وقت تناولها بعيداً عن أوقات التعبد، فيكون تناوله للأكل مثلاً في غدائه (ما يسميه العوام بالفطور)، بينما لا يأكل ليلاً إلا ما يحتاجه البدن دون زيادة؛ ليكون قلبه حاضراً ونفسه مطمئنةً أثناء أداء وظائف الليل كـ (قيام الليل والدعاء والاستغفار بالسحر).

✽ أن يكون كارهاً لحال نفسه - فيقينها غيرٌ كاملٍ بلا شك - عسى أن تكون كراهيته هذه سبباً لترقي نفسه إلى الحال الأولى.

✽ أن يكثر من دعاء ربه والتضرع إليه بأن يرزقه اليقين الكامل.

✽ إذا وجد من نفسه طواعيةً لترك الشبع حتى في الأوقات التي قد جعلها لتناول ما تشتهيه نفسه من المباحات دون إسراف، إذا وجد من نفسه الطواعية لذلك حمد الله، ولم يتناول منها إلا ما يحتاجه بدنه، ولعلّ المداوم على هذه الطريقة في تهذيب نفسه يجد منها الطواعية في كثيرٍ من الأحيان؛ لعدم شعور نفسه بالحرمان، والله المستعان.

✽ ألا يبالي ماذا أكل ولا ماذا شرب، إنَّما غاية ما يبيحه لنفسه أن تشبع في الأوقات التي جعلها لذلك، فإن لم تكن كذلك عاقبها بالحرمان من بعض ما قد فسخ لها فيه، حتى إذا استقامت أعادها إلى ما كانت عليه.

(ج) نفسٌ إذا دعاها صاحبها إلى الصبر عن شهواتها لأجلٍ قريبٍ لم تجبه بل تريد قضاء وطرها من كل ما تشتهيه في كل وقت، فهذه حالٌ رديّة، ولا بد من قسر هذه النفس وكبح جماح شهواتها رغماً عنها، ويكون ذلك بتكليفها الطريق السابق ذكرها (رقم ب) مع معاقبتها إذا توانت أو أهملت حتى يصير سلوك هذه الطريق طواعيةً.

١٤- فعل العبد المعاصي وعدم صدق توبته منها؛

فإن تلبس العبد بالمعاصي يورثه الكسل؛ وذلك لأنَّ الهمة والنشاط في الطاعة توفيقٌ من الله، والمعاصي قد حرم نفسه من معية الله وتوفيقه بمعصيته لله، والمعصية التي تفسد حال القلب وتبعده عن ربه ومولاه هي التي لم يتب فاعلها منها توبةً نصوحاً، وأمّا مَنْ يتوب من معاصيه، ويصدق في توبته، ويحسن في طاعته لربه بعدها، ويغلب على قلبها - بسببها - الحياء والندم والإنابة، فهذا ربما يكون أفضل ممّن لم يعص؛ وذلك إذا لم يكن بقلبه ما كان بقلب العاصي التائب من معاني الإيثار.

فعلى العبد أن يداوم على التوبة والإنابة إلى ربه فور عصيانه، ففي الحديث: «وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَحْمُهَا»، وليجتهد في تكميله لتوبته، ولا يسوّف ولا يؤخّر؛ فإن تأخير التوبة ذنبٌ يحتاج إلى توبةٍ بجانب التوبة من ارتكاب الذنب نفسه.

١٥ - دناءة الهمة:

فإن صاحب الهمة الدنيّة تتكاسل نفسه عن الطاعات ولا بد، وتتمثل دناءة الهمة في صورٍ منها: المنافسة على الدنيا وجعلها أكبر همٍّ ومبلغ العلم، وجعل الفوز بها هو الفوز، وخسارتها هي الخسارة.

ومنها كذلك: السعي في تحصيل علوم الدنيا، وإهمال علوم الآخرة.

ومنها: السعي في تحصيل التحسينيات (الكليات) المتعلقة بأمور الدنيا مع إمكانية الاستغناء عنها، وترك تحصيل الفضائل المتعلقة بأمور الآخرة.

ومنها: بذل الجهد والوقت وهجر الراحة من أجل العلوّ في الدنيا، والتكاسل عن معشار ذلك في سبيل علو المنازل في الآخرة - وعلاج ذلك بقراءة سير السلف وقراءة كتب الزهد - مثل سير أعلام النبلاء، الزهد للإمام أحمد، مختصر حلية الأولياء، مختصر منهاج القاصدين وغيرها - لتزهد النفس في الدنيا وتقبل على الآخرة، كما يتحقق العلاج أيضاً بإكثار المرء من قراءة القرآن وتدبره، فهو من أكبر أسباب زهد القلب في الدنيا، وكذا بإكثار المرء من ذكر الموت وزيارة القبور والتفكير في حال أهل المقابر، وينبغي للمرء أن يُكرِه نفسه - في البداية - على سلوك سبل الخير والطاعات، ولا ينتظر مطاوعتها له حتى تعتاد ذلك، كما ينبغي له إدمان الدعاء والمداومة على التضرع إلى الله بأن يرزقه الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.

الفصل الرابع

وسائل علاج الكسل

لعلاج الكسل وسائل كثيرة منها:

١- السعي في تلافي أسبابه التي قدمنا كثيرًا منها.

٢- التضرع إلى الله بالدعاء.

وقد علمنا النبي ﷺ ذلك في غير ما حديث، فقد روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل...» وروى أيضًا عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل...» وروى البخاري ومسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم...» وروى البخاري عن أنس أن رسول الله ﷺ كان كثيرًا ما يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل...»، وفي الإكثار من الاستعاذة منه دليل على عظيم خطره وكبير أثره في فساد النفوس، كما يدل على عظيم أثر الدعاء في علاجه بإذن الله، كما يدل على أن العبد إن لم يرحمه ربه ويحسن إليه أحاط به الكسل والفتور، فما أحوج العبد وقت نشاطه وإقباله على الطاعة أن يتضرع إلى ربه بنفي الكسل عن قلبه، لا أن يدعو ربه بذلك وقت فتوره فقط، ففي الحديث: «من سرّه أن يستجيب الله له في الضراء، فليكثر من الدعاء في الرخاء».

يقول د/ خالد أبو شادي: «أيها المريض... استعن بمولاك على مرضك، اطلب نصره على هواك، لا تدخل المعركة وحدك، كيف وأنت معك المدد كله... كيف وبجوارك القوة التي لا تغلب... أحسن الكلام في الشكوى سؤال المولى... ولا يدفع أمواج البلاء

سوى صيحات الدعاء... واطب على النياحة والبكاء... استعن بأرحم الراحمين... اشكُ إلى أكرم الأكرمين... أدمن الاستغاثة... لا تمل طول الشكاية، فإن مصيبتك عظيمة، وتماديك طال، وداؤك أعياء، ولم يعد لك مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجأ إلا إلى مولاك، فافزع إليه بالتضرع، واخشع على قدر هول ذنبك، فرحمته أقرب إلى المتضرع الذليل» (انتهى بتصرف).

٣- أن يضرب المرء بسهم في كل أبواب الخير؛

فإن النفس ملولة، ومن رحمة الله بعباده أن نوح لهم الطاعات، حتى إذا ملّت النفس طاعة ما، لم تجد ذلك في أخرى، ولكن لا يُوفق في استغلال أوقات الفتور إلا من له تعودٌ على ألوان الطاعات، وإلا فهل يُتوقع من عبدٍ معرضٍ عن قراءة القرآن في أغلب أوقاته، ولا يقرأ منه - إذا قرأ - إلا اليسير، هل يُتوقع منه أن يُقدم على قراءة القرآن في أوقات فتوره عن غيره من الطاعات؟، وهل يُتوقع من عبدٍ لا يكاد يقرأ أذكار الصباح والمساء ولا الأذكار دبر الصلوات هل يُتوقع منه أن يُقبل على ذكر الله عند فتوره عن غير الذكر من الطاعات؟ فاللزام إذاً أن يكون للعبد نصيبٌ طيبٌ من مختلف الطاعات لتعتاد نفسه الطاعات كلّها فيتسنى له استغلال أوقات فتوره.

٤- أن يعرف العبد ما هو أنفع له من الطاعات؛

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ومراضيه سبحانه متعددة بحسب الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال، وكلّها طرق مرضاته، فهذه التي جعلها الله لرحمته وحكمته كثيرة متنوعة جداً لا اختلاف استعدادات العباد وقوابلهم، ولو جعلها نوعاً واحداً مع اختلاف الأذهان والعقول وقوة الاستعدادات وضعفها لم يسلكها إلا واحدٌ بعد واحد، ولكن لما اختلفت الاستعدادات تنوّعت الطرق؛ ليسلك كل امرئ إلى ربه طريقاً يقتضيها استعدادة وقوته وقبوله» (طريق المهجرتين: ١ / ٢٨٤).

وقال شيخ الإسلام: «الناس يتفاضلون في الإيمان كتفاضلهم في شعبه، وكل إنسان يطلب ما يمكنه طلبه، ويقدم ما يقدر على تقديمه من الفاضل، والناس يتفاضلون في هذا الباب، فمنهم من يكون العلم أيسر عليه من الزهد، ومنهم من يكون الزهد أيسر عليه، فالمشروع لكل إنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير كما قال تعالى: ﴿فَأَنقُوا اللَّهَ مَا أَسْطَظَعْتُمْ﴾ (الباب: ١٦)، وإذا ازدحمت شعب الإيمان قدم ما كان أَرْضَى الله وهو عليه أقدر، فقد يكون على المفضول أقدر منه على الفاضل، ويحصل له أفضل مما يحصل من الفاضل، فالأفضل لهذا أن يطلب ما هو أنفع له وهو في حقه أفضل، ولا يطلب ما هو أفضل مطلقاً إذا كان متعذراً في حقه أو متعسراً يفوته ما هو أفضل له وأنفع؛ كمن يقرأ القرآن بالليل فيتدبره ويتنفع بتلاوته والصلاة تثقل عليه ولا ينتفع منها بعمل، فأَيُّ عملٍ كان له أنفع والله أطوع أفضل في حقه من تكلف عملٍ لا يأتي به على وجهه، بل على وجهٍ ناقص، ويفوته به ما هو أنفع له» (الفتاوى: ٧ / ٦٥١ - ٦٥٢).

وقال الإمام مالك لعبد الله العمري الزاهد لما أرسل إليه يحثه على التفرغ للعبادة، فكتب إليه الإمام مالك: «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ الْأَعْمَالِ كَمَا قَسَمَ الْأَرْزَاقَ، فَرُبَّ رَجُلٍ فُتِحَ لَهُ فِي الصَّلَاةِ، وَلَمْ يُفْتَحْ لَهُ فِي الصَّوْمِ، وَآخِرُ فُتْحٍ لَهُ فِي الصَّدَقَةِ، وَلَمْ يُفْتَحْ لَهُ فِي الصَّوْمِ، وَآخِرُ فُتْحٍ لَهُ فِي الْجِهَادِ، فَنَشَرُ الْعِلْمِ أَفْضَلُ أَعْمَالِ الْبَرِّ، وَقَدْ رَضِيتُ بِمَا فُتِحَ لِي فِيهِ، وَمَا أَظُنُّ مَا أَنَا فِيهِ بَدُونِ مَا أَنْتَ فِيهِ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ كَلَانَا عَلَى خَيْرٍ وَبَرٍّ» (سير أعلام النبلاء: ٨ / ١١٤).

٥- تَلَمَّسُ الْخَيْرِ مِنَ الْفُتُورِ وَعَدَمُ الْيَأْسِ؛

فإنَّ الفتور من الأمور التي لا يكاد ينفك عنها بالكلية أحدٌ، فمن كان على بصيرةٍ كان له رفعةٌ في الدرجات، وفي الحديث: «إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شَرَّةً، وَلِكُلِّ شَرَّةٍ فِتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فِتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي، فَقَدْ اهْتَدَى، وَمَنْ كَانَتْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، فَقَدْ هَلَكَ» (رواه أحمد وانظر:

والشرّة: الإقبال بنشاطٍ وهمّة. والفترة: الفتور وضعف الهمة والنشاط.

يقول ابن القيم: «تخلل الفترات (أي: الفتور) للسالكين أمرٌ لا بد منه، فمن كانت فترته إلى مقاربةٍ وتسديد، ولم تخرجه من فرض، ولم تُدخله في محرّمٍ رُجي له أن يعود خيراً ممّا كان».

وقال أيضاً رَحِمَهُ اللهُ: «وفي هذه الفترات والغيوم والحجب التي تعرض للسالكين من الحِكم ما لا يعلم تفصيله إلا الله، وبهذا يتبين الصادق من الكاذب، فالكاذب ينقلب على عقبيه ويعود إلى رسوم طبيعته وهواه، والصادق ينتظر الفرج ولا ييأس من رَوْح الله، ويلقي نفسه بالباب طريقاً ذليلاً مسكيناً مستكيناً، كالإناء الفارغ الذي لا شيء فيه البتة ينتظر أن يضع فيه مالك الإناء وصانعه ما يصلح له، لا بسببٍ من العبد - وإن كان هذا الافتقار من أعظم الأسباب - لكن ليس هو منك، بل هو الذي منّ عليك به، وجردك منك وأخلاك عنك وهو الذي ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ (الأنفال: ٢٤)، فإذا رأيته قد أقامك في هذا المقام، فاعلم أنه يريد أن يرحمك ويملاً إناءك، فإن وضعت القلب في غير هذا الموضع، فاعلم أنه قلبٌ مضيعٌ، فسل ربه ومن هو بين أصبعين من أصابعه أن يرده عليك ويجمع شملك به».

يقول د/ خالد أبو شادي: «لعلّ من حكمة وقوع الفتور لك أن تعلم قدر النعمة التي سُلبت منك، فإذا ما رجعت يوماً إليك احتضنتها بقوة عالماً قدرها غير مفرطٍ فيها أو مضيعٍ، ودواء الملل إمّا أن يكون في الانشغال بعملٍ آخر وعدم التركيز على عملٍ واحدٍ فحسب، وإمّا بالترفيه عن النفس بشيءٍ من المباح مستصحباً معه نيةً صالحةً، وغيوم الفتور أنواع وليست على درجةٍ واحدة، بل تختلف على حسب درجة الإيمان، يقول ابن القيم: (منها ما يكون سريع الحصول سريع الزوال، ومنها ما يكون سريع الحصول بطيء الزوال، ومنها ما يكون بطيء الحصول بطيء الزوال)».

قلتُ: ومن وسائل استغلال الوقت كذلك أثناء الفتور: صلة الرحم، وزيارة الإخوان في الله، وعيادة المرضى، والسعي في حوائج الفقراء والمساكين واليتامى والأرامل؛ فإنَّ الحُطَا في هذه الأعمال قربة وعبادة، بل من أحبَّ القرب إلى الله كما دلَّت على ذلك السُّنة، فضلاً عما قد يصحبها من دعوةٍ إلى الله أو صدقةٍ أو نصيحةٍ أو ذكرٍ أو غيره.

٦- إلزام النفس بالطاعة ومعاقبتها على تركها؛

فإنَّ النفس كما قدمنا ملوثةً كسولةً، فلا بد من قسرها على الطاعات حتى تستقيم عليها وتعتادها، فإن تهاونت فلا بد من عقوبتها حتى لا تسترسل في المخالفات، ومعاقبتها إنما تكون بإلزامها بطاعاتٍ وأورادٍ أثقل ممَّا تهاونت فيه؛ ليكون رادعاً لها، ويروى عن أبي طلحة أنَّه اشتغل في صلاته بأمر حائضٍ له، فتصدق به لله، وعن ابن عمر أنَّه كان إذا فاتته صلاة العشاء في جماعة قام ليلتها حتى يطلع الفجر، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحَّهَا»، ولقد صدق مَنْ قال:

شارطِ النفسَ وراقِبِ	لا تكن مثل البهائم
ثمَّ حاسبها وعاتب	وعلى هذا فلازم
ثمَّ جاهدها وعاقب	هكذا فعل الأكابر
لم يزالوا في سجالٍ	لنفسوس محاربينا
فاز من قام الليالي	بصلاة الخاشعينا

واعلم أنَّ طرق السلف في معاتبة النفس على تقصيرها في طاعة الله قد تنوعت:

✽ فمنهم من كان يعاقبها بثقل الأوراد وتكليفها بطاعاتٍ أكثر، كما نقل عن ابن عمر من أنَّه فاتته صلاة العشاء في جماعة ليلةٍ، فأحيا تلك الليلة كلها (وقيام الليل كله جائز إذا لم يداوم عليه المرء).

❁ ومنهم من كان يعاقبها بقطع سبب التقصير كما نُقل عن عمر بن عبد العزيز أنَّ معلّم أولاده أخبره بأنّ ابنه تأخّر عن الدرس بسبب انشغاله بإصلاح شعره، فأمر بحلق شعره، وكما نُقل عن عمر بن الخطاب أنّه شغل بأمر حائطٍ له (أي: بستان) فتأخّر عن الصلاة، فتصدّق به كلّهُ.

❁ ومنهم من كان يعاقبها ببذل ما يشق عليها بذله، كما نُقل عن عبد الله بن وهب أنّه جعل على نفسه إن اغتابت أن يصوم يوماً فلم يشق عليه الصيام، فجعل عليها إن اغتابت أن تتصدق بدرهم فتركت الغيبة، والنفوس تختلف فيما يشق عليها، فربما شق على آخر الصيام دون الصدقة.

❁ ومنهم مَنْ كان يكثر من فعل الخيرات مطلقاً إذا زلّت نفسه أو أخطأت كما في الصحيح عن عمر بن الخطاب أنّه أخبر عن نفسه أنّه كان إذا ذكر مراجعته لرسول الله ﷺ يوم الحديبية، واعتراضه على شروط الصلح الجائرة، أنّه كان إذا ذكر ذلك عمل أعمالاً (أي: من الصدقة والاستغفار والعق وغيرها)، وقد قال ﷺ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها».

❁ وأمّا ما ورد عن بعض الصوفية من تحريم الطيبات أو فقاً العين التي نظرت إلى الحرام أو قطع الرجل التي مشت إلى محرّم، فهذا كلّهُ غير جائز.

تنبيه: ينبغي للمرء أثناء أوقات الفتور أن يلزم نفسه بما تقدر عليه من طاعات؛ لئلا تستسهل الدعة وتستثقل الطاعات، كما أنّ ذلك يقلّص أوقات الفتور، فمن تكاسل مثلاً عن تدبر القرآن في صلاة الليل، قرأ ورده في صلاة الليل ولو بدون تدبر، فإن تكاسل عن ذلك قرأ ما يمكنه ولو كان أقلّ من ورده، ولكن لا يترك صلاة الليل بالكلية، وقس على هذا في بقية الأعمال.

٧- تحقيق الخوف والرجاء:

فإن الخوف يمنع العبد ويحجزه عن المخالفات وكلما ازداد خوف العبد كلما كَفَتْ نفسه عما لا يحبه الله من المكروهات فضلاً عن المحرمات، وكذا الرجاء فإنه يبعث النفس على الجد والاجتهاد في الأعمال الصالحة، وكلما زاد رجاء العبد كلما استقام على الطاعات المستحبة رجاء فضلها وثوابها فضلاً عن الواجبات.

❦ وما أسهل ادعاء الخوف والرجاء، ولكن تحقيقهما صعب إلا على من يسره الله عليه.

يقول الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «وأما الخوف فيجب التزامه لأمرين:

أحدهما- للزجر عن المعاصي؛ فإن هذه النفس أمارَةٌ بالسوء ميالة إلى الشر، طامحة إلى الفتنة ولا تنتهي عن ذلك إلا بتخويفٍ عظيم، وتهديدٍ بالغ، ليست هي في طبعها حُرَّةَ يَمِّها الوفاء، ويمنعها الحياء من الجفاء، فالتدبير في أمرها أن تقرر لها أبداً بسوط التخويف، قولاً وفعلاً وفكراً.

الثاني- لئلا تعجب بالطاعات فتهلك، فاللازم قمعها بالذم وتذكيرها بما كان منها من النقائص والأوزار، التي فيها ضروب الأخطار.

وأما الرجاء فإنما يلزمك استشعاره لأمرين:

أحدهما- للبعث على الطاعات؛ وذلك أن الخير ثقیل والشيطان عنه زاجر، والهوى إلى ضده داع، وحال عامة الخلق - كما هو مشاهد - الغفلة، والثواب الذي يطلبه عن العين غائب، وأمد الوصول إليه فيما يحسبه بعيد، وإذا كان الحال على هذه الحالة، فلا تنبعث النفس للخير ولا ترغب فيه حق الرغبة إلا بالأمر يقابل كل هذه الموانع، ويساويها بل يزيد عليها؛ وذلك الأمر هو الرجاء القوي في رحمة الله تعالى.

الثاني - ليهون عليك احتمال الشدائد والمشقات، فإنَّ مَنْ عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، ومن طاب له شيء ورغب فيه حق رغبته احتمل شدته ولم يبال بما يلقي من مؤنته، ومن أحبَّ أحدًا حق محبته أحبَّ أيضًا احتمال محنته، حتى إنَّه ليجد بتلك المحنة ضروريًا من اللذة، ألا ترى الأجير لا يعبأ بارتقاء السلم الطويل مع الحمل الثقيل طول النهار الصائف المديد، لما يتذكر من أخذ درهمين بالعشي؟ وأنَّ الفلاح لا يفكر بمقاساة الحر والبرد ومباشرة الشقاء طول السنة لما يتذكر من البَيْدَر أو ان الغلَّة؟ وكذلك العباد الذين هم أهل الاجتهاد، إذا ذكروا الجنَّة في طيب مقليلها، وأنواع نعيمها من قصورها وحوورها، وطعامها وشرابها، وحُلِيِّها وحللها، وسائر ما أعدَّه الله لأهلها هان عليهم ما احتملوه من تعبٍ في عبادة، أو ما فاتهم في الدنيا من لذة ونعيم، أو نالهم من ضرر ومشقة لأجلها» (انتهى من كتاب منهاج العابدين).

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللهُ في نفس الكتاب: «ومقدمات الخوف أربع:

الأولى - ذكر الذنوب الكثيرة التي سبقت، وكثرة الخصوم الذين مضوا في المظالم، وأنت مرتين لم يتبين لك الخلاص بعد.

والثانية - ذكر شدة عقوبة الله سبحانه التي لا طاقة لك بها.

والثالثة - ذكر ضعف نفسك عن احتمالها.

والرابعة - ذكر قدرة الله عليك متى شاء وكيف شاء ومقدمات الرجاء أربع:

١ - ذكر سوابق فضله إليك من غير قدمٍ ولا شفيح (حيث اختارك للإسلام وأنت في ظهر آدم).

٢ - ذكر ما وعد الله من جزيل ثوابه وعظيم كرامته على حسب فضله وكرمه، دون استحقاقك إياه بالفعل؛ إذ لو كان على حسب الفعل لكان أقل شيء وأصغر أمر.

٣- ذكر كثرة نعم الله عليك في أمر دينك ودنياك في الحال، من أنواع الإمداد والألطف من غير استحقاق أو سؤال.

٤- ذكر سعة رحمة الله تعالى وسبقها غضبه، وأنه الرحمن الرحيم، الغني الكريم، الرؤوف بعباده المؤمنين. فإذا واطبت على هذين النوعين (أي: مقدمات الخوف والرجاء) أفضيا بك إلى استشعار الخوف والرجاء بكل حال.

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «واعلم أنه لا يتأتى لك سلوك طريق الخوف والرجاء، وحمل هذه النفوس الجموح الكسلى على الخير باجتناّب المحبوب عندها، واكتساب الطاعات الثقيلة عليها، إلا بالتحفظ بثلاثة أصول والتذكر لها على سبيل الدوام، من غير فترة ولا غفلة:

الأول- ذكر أقواله سبحانه في الترغيب والترهيب، وذلك بتدبر ما في الكتاب العزيز من آيات الترغيب والترهيب، والترجية والتخويف.

الثاني- ذكر أفعاله سبحانه في الأخذ والعفو، أما من جانب الخوف فتأمل العبد لحال من آل أمرهم إلى الغواية واللعنة والطرد بعد الاستقامة كحال إبليس، وبلعام الذي آتاه الله آياته وغيرهما، وأما من جانب الرجاء، فتأمل له لآثار رحمة الله الواسعة في الدنيا والتي هي جزء من مائة جزء من رحمته التي أعدها وأدّخرها ليوم القيامة، وكيف أنه يهب كفر سبعين سنة بإيمان ساعة، أما ترى في أمر سحرة فرعون الذين جاءوا لحربه سبحانه، وحلفوا بعزة فرعون عدوه، فلما آمنوا غفر لهم، وكرر ذكرهم في القرآن في معرض المدح، وجعلهم من رؤساء الشهداء في الجنة، فهذا أمره مع مَنْ عرفه ووحدّه ساعة بعد ذلك الكفر والفساد والضلال، فكيف حال من أفنى في التوحيد عمره؟!!

الثالث- ذكر جزائه للعباد في المعاد من الثواب والعقاب، وذلك بتفكر العبد في الموت، والقبر، والقيامة، والجنة، والنار، وما في كل مقامٍ من الخطر العظيم للمطيعين والعاصين، والمقصرين والمجتهدين.

ثم قال رَحْمَةُ اللَّهِ: «وجملة الأمر أنك إذا تذكرت سعة رحمة الله التي قد سبقت غضبه ووسعت كل شيء، ثم أن كنتَ من هذه الأمة المرحومة الكريمة على الله تعالى، ثم غاية فضله الكريم، وكمال جوده العظيم، وجعل عنوان كتابه إليك «بسم الله الرحمن الرحيم»، ثم كثرة أياده إليك ونعمه الظاهرة والباطنة من غير شفيح أو قدم سابقة لك؟ (أي فيما كتبه لك من الخير وأنت في بطن أمك)، وتذكرت - من جانب آخر - كمال جلاله وعظمته، وعظم سلطانه وهيبته، ثم شدة غضبه الذي لا تقوم له السماوات والأرض، ثم غاية غفلتك وكثرة ذنوبك وجفوتك، مع إحاطة علمه وبصره بالعيوب والغيوب، ثم حُسن وعده وثوابه الذي لا يبلغ كنهه الأوهام، وشدة وعيده وأليم عقابه الذي لا يحتمل ذكره القلوب، تارةً تنظر إلى فضله، وتارةً تنظر إلى عذابه، وتارةً تنظر إلى رحمته ورأفته، وتارةً تنظر إلى نفسك في جفواتها وجنباياتها... فإذا فعلت يودي بك جميع ذلك إلى تحقيق الخوف والرجاء، فكأنني بك قد وصلت إلى المقصود غانماً، وشفيت من العلل سالماً، ووجدت النفس قد انبعثت للطاعة، ودانت في الخدمة ليلاً ونهاراً من غير فترة ولا غفلة، واجتنبت المخازي والمعاصي وهجرتها، كما قال أحد الصالحين: «مَنْ ذَكَرَ الْجَنَّةَ طَالَ شَوْقُهُ، وَمَنْ ذَكَرَ النَّارَ طَارَ نَوْمُهُ» وصرت حينئذٍ من الأصفياء الخواص العابدين الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَكَ رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٠)» (انتهى كلامه رَحْمَةُ اللَّهِ).

٨- إعلام النفس بجميل عاقبة الصبر على الطاعة:

فإنَّ الصبر على الطاعة - الذي هو ضد الكسل عنها - أفضل أنواع الصبر كما حقق ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ.

يقول الغزالي رَحْمَةُ اللَّهِ في كتاب «منهاج العابدين»: «فعليك بالصبر، وإنَّ ذلك

لأمرين:

أحدهما- التوصل إلى العبادة وحصول المقصود منها، فإن مبنى أمر العبادة كله على الصبر واحتمال المشقات، فمن لم يكن صبوراً لم يصل إلى شيء منها بالحقيقة؛ وذلك أنه لا عبادة إلا وفي نفسها مشقة، ولذلك ورد كل هذا الترغيب فيه ووعد الثواب عليه؛ إذ لا يتأتى فعل العبادة إلا بقمع الهوى وقهر النفس، إذ هي زاجرة عن الخير والرشد، ومخالفة الهوى وقهر النفس من أشد الأمور على الإنسان، كما أن العبد إذا فعل الخير مع المشقة لزمه الاحتياط له حتى لا يفسد عليه، والإبقاء على العمل أشد من العمل، ثم إن طالب الآخرة أشد ابتلاء وأكثر محنة، ومن كان إلى الله تعالى أقرب، فالمصائب له في الدنيا أكثر، والبلاء عليه أشد، فإذا: مَنْ قصد الخير وتجرد لطريق الآخرة استقبلته هذه المحن، فإن لم يصبر عليها - ولا يكون بحيث لا يلتفت إليها - انقطع عن الطريق واشتغل عن العبادة، فلا يصل إلى شيء من ذلك.

والثاني- ما في الصبر من خير الدنيا والآخرة:

- ❖ فمن ذلك: النجاة والنجاح، قَالَ النَّجَّالِيُّ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢، ٣)، معناه: ومن يتق الله بالصبر يجعل له مخرجاً من الشدائد.
- ❖ ومنها: الظفر بالمراد، قَالَ النَّجَّالِيُّ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ (الاعراف: ١٣٧)، وقال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْقِيبِينَ﴾ (هود: ٤٩).
- ❖ ومنها: التقدم على الناس والإمامة، قَالَ النَّجَّالِيُّ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤).
- ❖ ومنها: المحبة من الله تعالى، قَالَ النَّجَّالِيُّ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنعام: ١٤٦).
- ❖ ومنها: الدرجات العلى في الجنة، قَالَ النَّجَّالِيُّ: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ (الفرقان: ٧٥).

❖ ومنها: الكرامة العظيمة، قَالَ الْجَلِّي: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

(الرَّعْدَ: ٢٤)

❖ ومنها: ثواب بلا غاية ولا نهاية، خارجاً عن أوهام الخلق وأعدادهم وتحصيلهم،

قَالَ الْجَلِّي: ﴿إِنَّمَا يُوقَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزُّمَرُ: ١٠).

❖ ومنها: البشارة من الله، قَالَ الْجَلِّي: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (الْبَقَرَةُ: ١٥٥).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما أعطي أحدٌ من عطاءٍ خيراً وأوسع من الصبر».

ولقد أحسن القائل:

الصبرُ مفتاحُ ما يُرجى وكلُّ خيرٍ به يكونُ
اصبرْ وإن طالت الليالي فريماً أمكن الحارونُ
وربما نيلَ باصطبارٍ ما قيل: هيهاتَ لا يكونُ
الحرونُ: أي الشيء الصعب.

فعليك باغتنام هذه الخصلة الشريفة، وبذل المجهود فيها تكن من الفائزين! والله

تعالى ولي التوفيق» (انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ بتصرف يسير).

قلتُ: على العبد أن يكلف نفسه الصبر على الطاعة حتى تزول مشقتها عن نفسه

شيئاً فشيئاً، وتصير سهلةً يسيرةً، فإذا دامت نفسه على ذلك التذّبها ووجد حلاوتها بحيث

تصير سعادة نفسه فيها، وقد قال بعض الصالحين: «قدتُ نفسي إلى الله وهي تبكي، فلم

أزل بها حتى قادتني وهي تضحك»، وليحذر المرء من التكاثر عن الطاعة، خاصةً بعد

النشاط فيها، فإنّ الهدم سهلٌ والبناء عسير، وكم من ساعة تكاسل وغفلة أضاعت خير

ساعاتٍ قضيت في الطاعة.

٩- الحياء من الله:

✽ ويتولد الحياء باستحضار العبد تقصيره في حق الله، مع تواتر نَعَم الله عليه، ومن أدام ذلك استحيى من الله ولا بد، فإذا استحيى من الله حق الحياء أورثه ذلك الجد والاجتهاد، ونفى عنه الكسل والفتور.

✽ ومن مظاهر تقصير العبد - والتي من شأنها أن تورثه الحياء - سعيه وجده في أمور الدنيا، وعدم مبالاته بما يلقاه في سبيل ذلك من مشقة وعناء بينما لا تكاد تسمح نفسه ببذل معشار ذلك في الطاعة.

✽ ومن مظاهره كذلك عدم رضاه بالنقص عن الكمال في أمور الدنيا، بينما يرضى بنقصان درجته ودناءة همته في أمور الآخرة.

✽ ومن مظاهره كذلك بذل النفس للجهد والوقت في أمور الدنيا، وربما كان بسعادة والتذاذ لما يؤمُّله من ثمرة ذلك سواء الثمرة المادية أو المعنوية، بينما لا يكاد تحتمل نفسه قراءة جزء من القرآن بالتدبر أو قيام الليل ساعةً بخشوع وسعادة.

✽ فمن أدام مراجعة نفسه في ذلك، وأكثر من لومها على تفضيلها الدنيا على الآخرة، أورثه ذلك الشعور بالتقصير، ولو بعد حين، فإذا أضاف إلى ذلك إكثاره من التفكير في نعم الله عليه، ازداد حياؤه، فيزداد عمله.

فائدة:

ومن أعظم نَعَم الله على العبد - والتي بالإكثار من التفكير فيها يُحقّق القلب الشكر - نعمة الإسلام، فما أجَلُّها من نعمة، فالحمد لله الذي هدانا للإسلام ونحن في ظهر آدم قبل أن يكون من العبد عمل، وكذا نعمة التوفيق لمعرفة السُّنة والانتظام مع أهلها رغم كثرة أهل الأهواء والبِدَع، فمن تفكر في هاتين النعمتين حق التفكير قام بقلبه الشكر لا

محالة، فضلاً عن التفكير مع ذلك في نعم الله الأخرى التي لا تُحصى في بدن العبد وفيما يحيط به في السماوات والأرض.

ومن الحياء الذي ينفي عن العبد الكسل كذلك حياؤه من إخوانه المؤمنين أن يحسنوا الظنّ به لما قد يظهر لهم من حسن ظاهره، ولا يعلمون ما يقع منه من المعاصي والتقصير في حق الله، وقد شغل هذا الأمر كثيراً من الصالحين، فعن بعضهم أنّه قال: «لو كان للذنوب رائحة ما جالسني منكم أحد»، وقال آخر: «لو تعلمون ذنوبي لأهلمت على رأسي التراب»، وكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا مُدِح قال: «اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيراً ممّا يظنون واغفر لي ما لا يعلمون» وخطب عمر بن عبد العزيز الناس خطبة بليغة ذرفت منها عيونهم ثمّ قال: «والله إني لأقول مقالتي هذه، وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب ما أعلمه عند نفسي» وعن بعضهم أنّه مرّ بقوم فقالوا: «هذا فلان الذي لا ينام من الليل إلّا قليلاً فقال: «يقول الناس عنيّ ما ليس فيّ!! فكان بعدُ لا ينام من الليل إلّا قليلاً».

قلتُ: وهذا النوع من الحياء قد يشتهه عند كثيرٍ من الناس بالرياء، والفارق بينهما أنّ المرائي يريد أن يزيد من عمله لينال المنزلة عند الناس ولينال مدحهم؛ ولذا يخبر بطاعته التي لم يطلّع عليها الناس، وأمّا هذا الحياء، فصاحبه لا يريد أن يعرف الناس بطاعته فضلاً عن أن يخبرهم بها، وإنّما - لعلو همّته - لم يرض أن يُمدح بما ليس فيه، فضلاً عن حزنه لما يقع منه من مخالفات لا يعلمها الذين يمدحونه لما يرون من ظاهره.

١٠- التدرج مع النفس؛

فإنّ حمل النفس على الطاعات الكثيرة دون تدرج كثيراً ما يكون سبب انقطاعها بالكلية، وفي الحديث: «إنّ هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، فإنّ المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» فشبهه من شدّد على نفسه وحملها ما لا تطيق من الطاعة بمثل من حمل

على دابته فوق ما تطيق من الأحمال، فإذا بها تهلك أو يصيبها ما يمنعها من السير، فلا هو أبقى دابته ليواصل بها المسير إلى الله (والدابة هي النفس)، ولا هو قطع ما كان سيقطعه لو كان قد عَقَلَ أمره ولم يَحْمِلْ دابته فوق ما تطيق، والقليل المداوم عليه خيرٌ من الكثير المنقطع، ولكن ينتبه ها هنا لأمرين:

(أ) أنَّ المراد من التدرج هو التدرج الكمِّي، وليس معناه ترك طاعاتٍ بزعم التدرج، فإنَّ النفس كسولة إذا تركت لم تكْدْ تفعل الطاعات، فلا يترك المرءُ مثلاً قيام الليل والصيام بالكلية بزعم التدرج، ولكن يجعل لنفسه أوراذاً من الطاعات كلّها - قدر المستطاع - ولكن لا يحْمِلْ نفسه فوق ما تطيق، فلا يقيم الليل مثلاً - وهو في بداية التزامه بالقيام - بجزئين، ولكن يبدأ بقدرٍ يستطيع المداومة عليه.

وفي الحديث: «أحب العمل إلى الله أدومه وإن قلَّ».

(ب) أن يكون على الدوام في ازديادٍ من الخير، فإذا رأى نفسه استقامت على طاعةٍ ما بقدرٍ معين زاد هذا القدر ويدوم عليه فترةً حتى إذا سهل على النفس زاد قدرًا آخر وهكذا، وأمّا ترك النفس دون ازديادٍ، فإنّه يؤدي إلى الكسل والانقطاع ولو بعد حين.

١١ - البصيرة في أمر الاستقامة:

فإنَّ عدم فهم المرء للمقصود من الاستقامة قد يكون سبباً في تكاسله وانقطاعه؛ وذلك لأنّه ربما ظنَّ أنَّ المراد أن يكون بارزاً في بابٍ معينٍ من أبواب الخير، فإذا لم يستطع البذل فيه ولا التفوق انقطع بالكلية يأساً من نفسه، وظناً منه أن نفسه لا تمكنها الاستقامة، وهذا اعتقادٌ خاطئٌ سببه قلة البصيرة أو انعدامها؛ فإنَّ أبواب الخير كثيرة، والطاعات التي شرعها الله لعباده كثيرة ومتنوعة، وليس المراد أن يبرز المرء في بابٍ بعينه بل المطلوب أداء الواجبات وترك المحرمات مع التزام ما يمكن من المستحبات - ولو الحد الأدنى من كل ما يُستطاع من المستحبات - مع سلامة القلب والصدق في النية، والطرق الموصلة

إلى محبة الله هي طريق العلم وطريق العبادة وطريق الدعوة وطريق حسن الخلق، ولربما سهلت على المرء العبادة وصعب عليه الانشغال بطلب العلم، وربما سهلت على المرء الانشغال بطلب العلم وصعب عليه التفرغ للعبادة.

وأفضل الناس عند الله - رغم أن طريق العلم هو أفضل الطرق - هو أتقاهم له وأصلحهم قلباً وإن لم يكن أعلمهم، وقد أخبر النبي ﷺ فيما صح عنه أن داود؛ أعبد البشر ومع ذلك لم يكن هو أفضل الأنبياء، وأخبر - فيما رواه مسلم - أن أفضل التابعين أويس القرني مع أن سعيد بن المسيب أعلم منه بكثير، فعلى المرء أن يسلك طريق العلم فهو أنفع الطرق له وللمسلمين، وأفضلها، وعليه أن يبذل ما يستطيع من الجهد والصبر، ولا ينقطع وإن وجد صعوبة في أول الطلب، وقد كان الطحاوي - رحمه الله - يدرس العلم على يد عمه المزني الشافعي - رحمه الله - وكان قد استعصت عليه المسائل في البداية، فقال له المزني: «والله لا تفلح»، فتركه، ودرس المذهب الحنفي، فصار إماماً من كبار أئمة المذهب، فاللازم لطالب العلم الصبر والاصطبار، فإن لم يجد همّة بعد طول مجاهدة فلا يقنط ولا ينقطع، وليسلك طريق الدعوة لتعدي نفعه، فيتعلم القرآن ويعلمه للناس، وينشغل بدعوة الناس إلى التزام أحكام الشرع، فإن لم يجد همّة في ذلك فليسلك طريق العبادة، وليعلم السالك لأي طريق من هذه الطرق أنه لابد من تحصيل الحد الأدنى من بقية الطرق؛ لئلا يكون تاركاً للخير هاجراً له، وقد زدت ذلك توضيحاً - بحمد الله - في كتاب «تهذيب النفوس»، ولكن الغرض المقصود هو بيان عدم لزوم سلوك طريق بعينه بل المراد هو استقامة القلب وصدقه وإخباته وإنابته لله عز وجل، وملاك ذلك في أمرين:

١ - الاهتمام بالقرآن حفظاً وتلاوةً وتدبراً والتزام ذلك دون انقطاع؛ قال تعالى:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الأنعام: ٩)، فالقرآن يهدي لأقوم الأخلاق والأقوال والأعمال والأحوال، وقد

وصفت عائشة النبي ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»، وسئل نافع عن عبادة ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال: «الوضوء لكل صلاة والمصحف بين ذلك»، ووالله - إنَّ عبداً يفعل الواجبات ويترك المحرمات ويعلم من العلم ما يجب عليه ولا يُخلى شهراً من صيام ولا يترك نوافل الصلاة وله حالٌ مع القرآن يقرأه آناء الليل وأطراف النهار، ويتدبر آياته ويخشع في صلاته، والله - إنَّ عبداً لهذا حاله لعلّ خيرٍ عظيم، وإن لم يكن عالماً أو عبداً.

٢- إدمان الدعاء: ودوام اللجوء إلى الله بأن يرزق قلب العبد الاستقامة وأن يلهمه رشده ويسدده ويثبتته على الطاعة ويوفقه للمزيد من الطاعة ويصّره بها هو أولى له وأنفع، فمن كان دائم الافتقار إلى ربه ودائم التضرع إليه، دام فلاحه، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ كَانَ دَائِمًا يَتَذَكَّرُ اللَّهَ دَعَا اللَّهَ يُجِبْ دَعْوَاهُ» (٤)، فلا شقاء للعبد مع الدعاء أبداً.

١٢- توطين النفس على الطاعة صباح مساء:

فإنَّ النفس سريعة النسيان كثيرة الغفلة تحتاج إلى دوام مراجعة وتوطين على الخير لتستقيم، ومع إكثار العبد من ذلك ومداومته عليه يجد الانتفاع والاتعاظ، وفي مشروعية أذكار الصباح والمساء إشارةً إلى أهمية ذلك في هذين الوقتين - والله أعلم - فعلى العبد أن يستحضر إذا أصبح أنَّ الله قد مَنَّ عليه بيومٍ جديدٍ عساه أن يتوب إليه ويُقبل عليه، ولهذا المعنى كان ﷺ إذا استيقظ من نومه يقول: «الحمد لله الذي ردَّ عليَّ روحي، وعافاني في بدني وأذن لي بذكره»، وقال ﷺ: «ليس أحدٌ أفضل عند الله من مؤمنٍ يُعَمِّرُ في الإسلام، لتسبيحه وتكبيره وتهليله»، وقال ابن مسعود لجاريته حين أخبرته بطلوع الشمس: «الحمد لله الذي وهب لنا هذا اليوم وأقالنا فيه عثراتنا ولم يعذبنا بالنار»، وقال سعيد بن جبیر: «كلُّ يومٍ يعيشه المؤمن غنيمة».

وعليه كذلك أن يلزم الاستغفار ويجدد التوبة من جميع الذنوب بالكف عنها والندم عليها والعزم الأكيد على عدم معاودتها وأداء الحقوق إلى أصحابها.

قال طلق بن حبيب: «إنَّ حقوق الله تعالى أعظم من أن يقوم بها العباد، وإنَّ نعم الله أكثر من أن تُحصى، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين».

وقال رجلٌ لحاتم الأصمَّ: «ما تشتهي؟ قال: أشتهي عافيةً يومٍ إلى الليل، فقال له: أليست الأيام كلها عافية؟ قال: إنَّ عافية يومي أن لا أعصي الله فيه».

وعليه كذلك أن يوطَّن نفسه على أن تكون من أصحاب الهمِّ بالآخرة، ففي الحديث: «من كانت همُّه الآخرة؛ جمع الله له شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا راغمة، ومن كانت همُّه الدنيا؛ فرَّق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأتها من الدنيا إلَّا ما كتَبَ الله له»، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا: «ما طلعت شمسٌ قطُّ إلَّا بُعثَ بجنبتَيْها ملكان، إِنْهما ليسمعانِ أهل الأرض إلَّا الثقلين: يا أيها الناس هلمُّوا إلى ربكم؛ فَإِنْ ما قلَّ وكفى خيرٌ ممَّا كثر وألهى».

وعليه كذلك أن يعزم على كفِّ شره عن الناس ويطهِّر قلبه من الغل لأَيٍّ من المسلمين، قال الصحابي الذي بشره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنَّه من أهل الجنة - لعبد الله بن عمرو لما أقام معه ثلاثًا كي يرقب عبادته فاستقلَّها وسأله عما يكون قد بلغ به هذه المنزلة، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما هو إلَّا ما رأيتَ غير أُنِي لا أجد على أحدٍ من المسلمين في نفسي غشًّا ولا حسدًا على خيرٍ أعطاه الله إيَّاه، قال عبد الله: فقلتُ له: هي التي بلغت بك وهي التي لا نطيق».

وعليه كذلك أن يستحضر قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذا أصبح ابنُ آدم فإنَّ الأعضاء كلَّها تكفِّر اللسان تقول: اتقِ الله فينا فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أكثرُ خطايا ابنِ آدم في لسانه».

وعليه كذلك أن يستحضر قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافى في جسده، عنده قوتُ يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»، وكذا

قوله صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «يصبح على كل سُلَامَى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزي من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى».

وعليه كذلك أن يستحضر أن هذا اليوم أو هذه الليلة قد يكون آخر عهده بالحياة، لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ (الْإِنْفَاق: ١٨٥)، وقد روي عنه أنه قال صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أكثرُوا من ذكر هادم اللذات؛ الموت؛ فإنه لم يذكره أحدٌ في ضيقٍ من العيش إلا وسَّعه عليه، ولا ذكره في سعةٍ إلا ضيَّقها عليه»، وقال صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أتاني جبريل، فقال: يا محمد، عِشْ ما شئتَ فإنك ميت، وأحبب مَنْ شئتَ فإنك مفارقه، واعمل ما شئتَ فإنك مجزيٌّ به»، وعن ابن عمر قال: أخذ رسول الله صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمنكبي، فقال: «كُنْ في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعُدَّ نفسك في أصحاب القبور»، وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك».

وقيل لمحمد بن واسع: كيف أصبحت؟ فقال: «ما ظنك برجلٍ يرتحل إلى الآخرة كل يومٍ مرحلة».

وقال آخر: «أصبحنا أضيافاً منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب»، وكان الربيع بن خثيم إذا قيل له: كيف أصبحت؟ قال: «ضعفاء مذنين، نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا»، وقيل للإمام مالك: كيف أصبحت؟ فقال: في عمرٍ ينقص وذنوبٍ تزيد».

وعليه كذلك أن يستحضر عظيم نعم الله عليه في ستره عليه قبيح أعماله، سئل بعض الصالحين: كيف أصبحت؟ فقال: «أصبحت وبنا من نعم الله ما لا يُحصى مع كثير ما يُعصى، فلا ندري على ما نشكر: على جميل ما نشر، أو على قبيح ما ستر؟!».

وقال رجلٌ لأبي تيمية: كيف أصبحت؟ قال: «أصبحت بين نعمتين لا أدري أيتهما أفضل: ذنوبٍ سترها الله فلا يستطيع أن يُعيرني بها أحد، ومودةٍ قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملي» (انتهى كلام الشيخ محمد إسماعيل باختصار وتصرف من كتاب مختصر النصيحة).

قلتُ: وهذه آدابٌ عظيمة النفع من استحضرها حقَّ الاستحضار، كان ذلك سبباً لنفي الكسل عن نفسه، بإذن الله.

وهذا آخر ما تيسر جمعه والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

